الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

المركز الجامعي – ميلة-

معهد الآداب و اللغات

ميدان الفنون و الآداب

شعر الغربة و السجون
مفدي زكرياء أنموذجا

مذكرة تخرج لنيل شهادة ليسانس نظام جديد

شعبة الأدبيات

إعداد الطالبات:

- مسعودة أوشيكن
- كريمة مقران
- صليحة بوالطواطو

تحت إشراف الأستاذ:

- عمار قرايري

السنة الجامعية : 2010-2011

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى من سهرت عينها لتنام عيني ، إلى من تعب جسدها ليرتاح جسدي إلى من تفرح لفرحي و تحزن لحزني ، إلى من أوصاني بها ربي و نصحني بصحبتها رسولي – صلى الله عليه و سلم– إلى من حملتني فوق أقوى ذراعين ، خلقهما الرحمن إلى من رافقتني بدعائها طوال الزمان

♥ ♥أمي الغالية♥ ♥

إلى تعب و شقي ، إلى من وعد و أوفى ، إلى من تحمل برد الشتاء و حر الصيف إلى كل دعمي و سندي ، إلى أملي و اطمئناني ، إلى من بذل النفس و النفيس من أجلي

♥ ♥ أبي الغالي♥ ♥

إلى الضحكات و البسمات و الزهور و كل أنواع العطور إلى الفراشات و ألوان الربيع

♥ ♥ ♥إخواني و أخواتي♥ ♥ ♥

♥ إلى رفاق الدرب ، إلى كل صديقاتي العزيزات اللواتي سكن قلبي ♥

♥ إلى أستاذنا المحترم الذي لم يبخل علينا بتوجيهاته و نصائحه القيمة♥

♥إلى كل طلبة العلم و المعرفة في قسم اللغة العربية ، إلى كل من ذكرهم قلبي و نساهم قلمي♥

♥ إلى كل من أحب ♥

يارب إن أعطيتني مالاً لا تأخذ سعادتي

...و إذا أعطيتني قوة لا تأخذعقلي...

و إذا أعطيتني نجاحًا لا تأخذ تواضعي

و إذا أعطيتني تواضعا لا تأخذ اعتزازي بكرامتي

...يارب لا تدعني أصاب بالغرور ...إذا نجحت ...ولا أصاب باليأس إذا فشلت

...بل ذكرني دائمًا بأن الفشل هو التجربة التي تسبق النجاح

...يارب علمني أن التسامح هو أكبر مراتب القوة ...و أن الإنتقام هو أول مظاهر الضعف...

...يارب إذا جردتني من المال ، أترك لي الأهل ...و إذا جردتني من النجاح

أترك لي قوة العناء حتى أتغلب على الفشل

و إذا جردتني من الصحة أترك لي نعمة الإيمان

يارب إذا أسأت إلى الناس أعطني شجاعة الاعتذار

و أذا أساء إلي الناس أعطيني شجاعة العفو

« آمين يارب العالمين »

بسم الله الرحمن الرحيم
«قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ»
[سورة يوسف :33]

مقدمة

الحمد لله و كفى و الصلاة على الحبيب المصطفى و بعد :

إن دراسة شعر الغربة و السجون ليس بالشيء اليسير على باحث مبتدئ في هذا العمل المتواضع، خاصة شعر السجون في الوطن العربي و الجزائري إذ أن أغلب الشعراء عاشوا ويلات الغربة و تجرعوا مرارة السجون ، و ما يمكن قوله هو أن فكرة البحث في شعر الغربة و السجون و أخذ مفدي زكريا – شاعر الثورة و النضال –كنموذج باعتباره زُج للعديد من المرات في غياهب السجن ن لم تخطر في بالنا صدفة و إنما جاءت بعد قراءتنا لشعر العديد من الشعراء المسجونين ، و لما حدثنا أستاذ الثانوية لمادة الأدب العربي عن الكثير من الكتب التي تتحدث عن الغربة و السجن فبقينا على ذلك الأمل إلى أن وضعنا أرجلنا على عتبة أبواب السنة الأخيرة ، أي سنة إنجاز المذكرة ، و في إحدى لحظات التفكير قررنا أن ننجز بحثنا حول ظاهرة الغربة و السجون التي تعرض لها الكثير من الشعراء فكانت سببا لإنتاجهم أروع الأشعار و من بين هؤلاء الشعراء الشاعر الجزائري "مفدي زكريا " ، و بعد ذلك كله أجمعنا على أن يكون عنوان مذكرة التخرج هو : شعر الغربة و السجون مفدي زكريا ، كنموذجا .

و هذا البحث المتواضع مقسم إلى ثلاثة فصول ، ففي الفصل الأول تناولنا دراسة نظرية شملت مبحثين ، فالأول حول تعريف الغربة و السجون و قسمناها إلى ثلاثة فروع ، و المبحث الثاني فهو حول تجليات الغربة و السجون في أشعار بعض الشعراء و أخذنا الشاعر العراقي " أحمد الصافي النجفي " و الشاعر الجزائري " محمد العيد " كأمثلة على ذلك ، ثم انتقلنا إلى الفصل الثاني الذي تناولنا فيه دراسة نظرية شملت ثلاثة مباحث ، فالأول حول التعريف بمفدي زكريا و هو مقسم إلى فرعين الأول في نسبه و مولده و الثاني في حياته الاجتماعية و الثقافية ، و أما المبحث الثاني حول الأوضاع السياسية و الاستعمارية و أثرها على حياة مفدي زكريا ، ثم انتقلنا إلى الفصل الثالث فتناولنا فيه دراسة تطبيقية شملت لأربعة مباحث ، الأول حول أثر الإستدمار في شاعرية مفدي زكريا و الثاني حول شعر الغربة و السجون عند مفدي زكريا ، أما الثالث فحول خصائص شعر الغربة و السجون لدى مفدي زكريا ، و الرابع و الأخير فقدمنا فيه نماذج عن شعر الغربة و السجون عند مفدي زكريا .

ثم أنهينا هذا البحث بخاتمة هي بمثابة نتائج الرحلة المتواضعة، هذه الرحلة التي لم تخل من عوائق مثل ضيق الوقت و نقص المصادر و المراجع التي تتحدث عن شعر الغربة و السجون و أتمنى أن نكون قد وفقنا في الربط و التنسيق بين أطراف هذا البحث المتواضع الذي لا يمثل إلا محاولة للوقوف على منهج صحيح و دراسة نظرية و تطبيقية لشعر الغربة و السجون.

فلا يسعنا و نحن نخوض غمار هذا البحث إلا أن نتوجه بخالص الشكر و الامتنان إلى كل من ساعدنا في بحثنا هذا من قريب أو من بعيد كما لا ننسى أن نشكر من لم يبخل علينا بنصائحه و توجيهاته متى احتجنا إليها في إنجاز هذه المذكرة ، الأستاذ القدير المشرف : عمار قرايري .

Fatakat.com

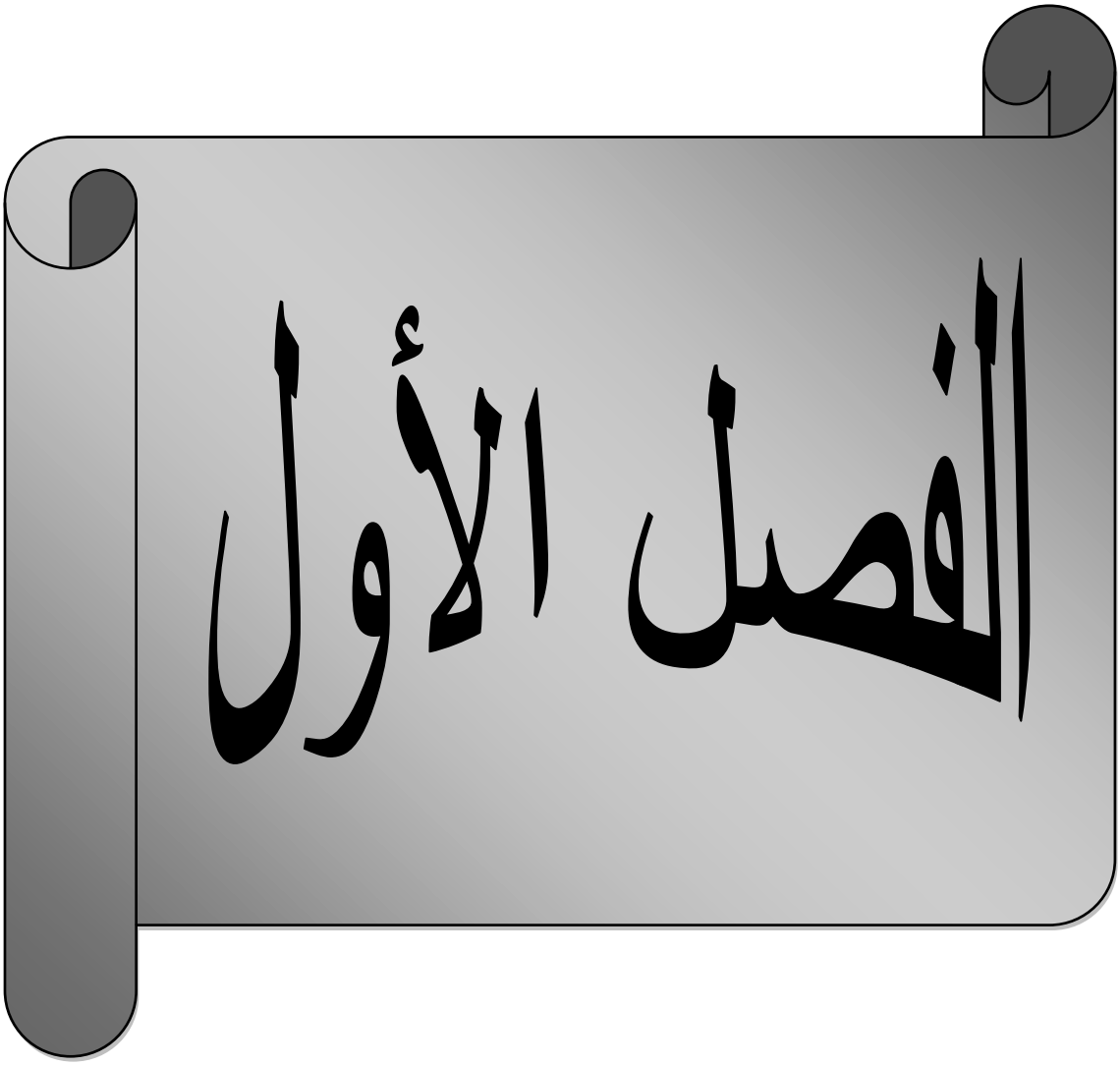

أوّلاً : تعريف الغربة و السّجون :

1-تعريف الغربة :

إنّ معنى الغربة لغويًّا في المعاجم العربية يشير إلى أكثر من دلالة أبـرزها وضوحا تلك التّي ترتبط بالمكان و الانتقال عنه ، " فالأزهري في تـهذيب اللّغة يشير إلى هذا المفهوم بقوله : « التّغريب النّفي عن البلاد و أيضًا غَرُبَ بَعَدَ ، و أغرب عنّـي أي تباع كذلك يشير " ابن منظـور " في لسان العرب إلى هذا المعنى بقوله: "الغربة و الغرب النّوي و البعد ، و يقال أغربته و غرّبته إذا نحّيته و أبعدته ، و التغريب النّفي عن البلد إذًا الغربة هي البعد و التنّحي » .

و نشير أنّ للغربة طابع ذاتي ديناميكي متغيّر بطبيعة صاحبها ، و بطبيعة المجتمع و ما يحكمه من أنظمة و مؤسسّات ، و بذلك تغيرّت معاني الغربة عمّا كانت عليه قديما ، و اتخذت لها صوّرًا معقّدة في العصر الحديث بسبب ما لحق به من دمار و حروب استلاب[1].

فقد اتخذت الغربة عند الإنسان الجاهلي بعدًا مكانيًا ن و يذكر الجاحظ كلامًا عن تشاؤم العرب بالغراب و يقول : { و من أجل تشاؤمهم بالغراب اشتقوا من اسمه الغربة ، و الاغتراب و الغربى و إنّما لزمه هذا الاسم لأن الغراب إذا كان أهل الدّار للنجعة ، وقع في مرابض بيوتهم يلتمس .و يتقمم فيتشاءمون و يتطيرون منه ، إذا كان لا يعتري منازلهم إلاّ إذا بانوا فسموه غراب البين }[2].

فهذا المصطلح إذن يفيد معنى النزوح عن الوطن و فراق الأهل ، و أصبح عند المحدثين أسوة بساقيهم الذين ينهون في رأيهم لا يخرجون عنهم . يعني النوى الألم و الشؤم و الفراق و البين و الهجرة لأسباب سياسية أو دينية أو اجتماعية.و ربّما نجد المفهوم الشّامل الذّي نبحث عنه لمعنى الغربة عند: " أبي حيّان التّوحيدي " في كتابه (" إشارات ألاهية ") حيث يدرج المفهوم المادّي و المعنوي لهذه الكلمة.

في قوله : { فأين أنت من غريبٍ قد طالت غربته في وطنه و قلّ حظّه و نصيبه من حبيبه و سكنه و أين أنت من غريب لا سبيل له إلى الأوطان و لا طاقة به على الإستطان ، إن

[1]عمر بوقرورة .الغربة و الحنين في الشعر الحديث (د.ط) منشورات جامعة باتنة .باتنة 1997.ص12

[2]–عمر بوقرورة . الغربة و الحنين في الشعر الحديث (د.ط) منشورات جامعة باتنة .باتنة 1997، ص14

نطق حزنًا منقطعًا و إن سكت سكت حيران مرتدعا ، و إن قرب قرب خاضعا ، و إن بَعُدَ بَعُدَ خاشعا ، و إن ظهر ظهر ذليلا ، و إن توارى توارى عليلاً ....}[1] .

أمّا المفهوم المادّي للغربة فهو : الارتحال عن الوطن و البعد عنه لسبب سياسي أو اجتماعي أو ثقافي و المفهوم المعنوي هو الغربة الروحيّة و الفكريّة و النّفسية .

و نشير إشارةً مسبقة إلى أنّ الشعر الجزائري – قبل الاستقلال – لم يخرج عن هذه المفاهيم إذ عبّر شعر السّجون عن الغربة بمعنييها المادّي ، عن الشّعراء الذين أجبروا عن مغادرة الوطن ، إما نفيا أو سجنا ، و المعنوي عند الشعراء الإصلاحيين خاصّة و الذين أحسّوا بغربة نفسيّة و روحيّة و فكريّة أمام الأوضاع المزريّة القاتمة التّي فرضها عليهم المستعمر في ظل الطرقيّة و طمس معالم الشخصيّة العربيّة و الإسلامية .

و نخلص إلى ما انْتَهَى إليه (د. عمر بوقرورة) قائلا : {و الغربة في كلا المعنيين تعني عناصر ثلاثة أساسيّة هي :

1–موقف فكري عقدي .

2–هجر الواقع الذّي لا يتلاءم مع موقف الشّاعر .

3–انتقال إلى مكان جديد[2] .

1–بداية ظهور شعر الغربة :

شعر الغربة بدأ بالظهور بصورة بارزة في الشّعر الجاهلي ، و يكفي أن نقرأ المعلّقات و شعر الجاهليين بصفة عامّة حتّى تسترعي انتباهنا هذه الظاهرة .و تشكل الأطلال الجاهلية مادّة غزيرة لهذا الموضوع ، و يكفي أن نذكر أنّ امرأ القيس أوّل من بكى الديّار و استبكى الرفاق عليها حيث يقول :

أَجَارَتَنَا إنَّا غَرِيبَانِ هَاهُنَا وَ كُلُّ غَرِيبٍ لِلْغَرِيبِ نسيبُ.

[1]– المرجع نفسه ص 16 .

[2]–عمر بوقرورة . الغربة و الحنين في الشعر الحديث (د.ط) منشورات جامعة باتنة .باتنة 1997.ص :18

و ظهر أيضًا عند غير الجاهليين ، في العصر الإسلامي و الأموي تصلنا أصداء الغزل العذري و ما عاناه الشعراء من غربة الإبعاد و الحرمان من المحبوبة ، من النّفي و البعد عن الوطن ، حيث صوّر " جميل بن معمر" ذلك في أجمل تصوير في شعره بقوله :

هَاجَتْ فُؤَادُكَ لِلْحَبِيبَـةِ دَارُ أَقْوَتْ وَ غَيْرُ أَيُها الأَمْطَـارُ

وَ عَفَا الرَّبِيعُ رُسُومَهَا فَكَأَنَّهَا لَمْ يُغْنِ قَبْلُ بِرُبْعِهَا دِيَّـارُ

وَ كَمَّا وَقَفَتْ بِهَا القَلُوصُ تَبَادَرَتْ مِنِّي الدُّمُوعُ وَهَاجَنِي إِسْتِعْبَارُ

أمّا في العصر العباسي ففيه انصهرت فيه جميع اتجاهات الشعر على مرّ عصوره فضلاً عن موازنته زمنيًّا لمرحلة ازدهار الأدب .و لقد كانت بغداد في عصر الخلافة العبّاسيّة تمثل مركز جذب لكثير من الشّعراء الذّين كانوا يَفِدُون عليها من أماكن مختلفة تاركين أسرهم و ديارهم . و هكذا اجتمع في البلاط العبّاسي شعراء متنافسون كان للصّراع بينهم دورٌ هام في تغريب بعض الشعراء .و أحيانًا نفيهم ، بل وصل الصراع و التنافس بينهم أن استعان بعضهم على بعض بذوي السلطة لاستصدار أحكام ضدّهم بالسّجن ، كما نجد أنّ " أبى تمّام " .

على الرّغم من اتّصاله بالخلفاء و الوزراء فقد كان كثير التّرحال و التنقّل ، حتّى ألف هذه الغربة فهو لا يقرّبه قرار حيث فرّقته الغربة عن أهله و أحبابه على نحو ما يقول :

مَا اليَوْم أَوَّلُ تَوْدِيعِي وَلاَ الثَّانِي البَيْنُ أَكْثَرَ مِنْ شَوْقِيَ وَ أَحْزَانِي

دَعِ الفُرَاقَ فإِنَّ الدَّهْرَ سَاعَدَهُ فَصَارَ أَمْلَكَ مِنْ رُوحِي بِجُثْمَانِي على هذا

النّحو ورد كثير من الشّعر الذي يشكو فيه أصحابه من حياتهم في الغربة و ما يلاق من آلام و صعوبات حتّى أصبحت العودة إلى الوطن حلما صعب المنال أو أمرًا مستحيلاً يقف الموت دونه.[1]

***-أنواع الغربة :**

1-سكينة قدّور – حبسيات في الشّعر العربي – مذكرة ماجستير في اللّغة العربيّة و آدابها جامعة منتوري ، قسنطينة 2006-2007م

أ-الغربة المكانيّة :

هو ذلك الإحساس الذّي يشعر به الإنسان ، في بعده عن وطنه و هذا النوع من الغربة ليس جديدا عن الشعر العربي ، و قد أخذ شعراء العصر الجاهلي يعبّرون عن غربتهم و تركهم أوطانهم و تكبّدهم عناء السّفر ، معبّرين بذلك عن حنينهم و أشواقهم إلى ديارهم و ربوعهم التي غادروها باختيار منهم .أمّا أولئك الذّين خرجوا مع الفتوحات الإسلامية تاركين أوطانهم إلى عوالم جديدة استقرّوا بها ، فقد بَقيت معهم ذكرياتهم و عواطفهم مع عالمهم الأصلي الذّي رحلوا عنه ، و مازال الحنين و الشّوق يراودهم من آن لآخر معبّرين عن غربتهم في عالمهم الجديد و رغبتهم الشديدة في العودة إلى معاهدهم و ديارهم التي حالت الظّروف دون عودتهم و نجد التّعبير عن هذه الغربة المكانية متناثرا في أشعارهم.

على نحو ما نجد في قول " عبد الرحمن الدّاخل " :

أَيُّهَا الرَّاكِبُ المِيمِ أَرْضِي ... أَقِرْ مِنْ بَعْضِ السَلاَمِ لِبَعْضِي

إِنَّ جِسْمِي كَمَا تَرَاهُ بِأَرْضٍ ... وَ فـُؤَادِي وَ مَالِكِيهِ بِأَرْضِ

قَدَّرَ البَيْنُ بَيْنَنَا فَافْتَرَقْنَا ... وَطَوى البَيْنُ عَنْ جُفُونِي غَمْضِي

و من بين الشعراء الذّين عبّروا عن هذا النّوع من الغربة بصورة واضحة "ابن الدّراج القسطلي" حيث يقول :

شَدَّ الجَلاَءُ رِحَالَهُمْ فَتَحَمَلَتْ ... أَفْلاَهُ قَلْبٍ بِالْهُمُومِ مُبدَدِ

وَحَدَتْ بِهِمْ صَعْقَاتُ رَوعٍ شَرَّدَتْ ... أَوْطَانَهُمِ فِي الأَرْضِ كُلَّ مُشَرَدِ

فالشكوى واضحة من تشرده و ضياع أوطانه ، و من تتابع الهموم التي أصابته هو و أسرته كبيرها و صغيرها سواء ، فلا مستقر و لا مستودع إلا العراء في حرّ الشمس من ظل القصور و يقول أيضًا في إحدى قصائد .المد حية " للمنصور بن أبي عامر " يبث زوجته هموم الغربة ، و أشجان النوى :

إِذّا شِئْتِ كَانَ النَجْمُ عِنْدَكَ شَاهِدِي ... بِلَوْعَةِ مُشْتَاقٍ وَ مُقْلَةَ سَاهِدِي

غَرِيبٌ كَسَاهُ البَيْنُ أَثْوابَ مُدَنَفٍ ... وَحَنَتْ بِهِ الأَشْجَانُ حَتَّى الوَلاَئِدِ

و من الشعراء الذين عانوا من الغربة المكانية الشاعر " ابن زيدون " فنسمعه يقول في غربته في أقصى الشرق :

غَرِيبٌ بِأَقْصَى الشَرْقِ يَشْكُرُ لِلصِبَا تَحَملَهَا مِنْهُ السَلاَمَ إِلَى الغَرْبِ

وَ مَا ضَرَّ أَنْفَاسُ الصِّبَا فِي اِحْتِمَالِهَا سَلاَمُ هَوَى يَهْدِيهِ جِسْمٌ إِلَى القَلْبِ

و يحلم المعتمد بن عباد " بالعودة إلى وطنه (إشبيلية) و هو يشعر بالغربة في السجن :

فَيَالَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبِيتَنَ لَيْلَةً أَمَامِيَ وَ خَلْفِي رَوْضَةٌ و غَدِيرُ

بِمَنْبَتَةِ الزَيْتُونِ مُورَثَةُ العَلَى يُغَنِي حَمَامٌ أَوْتَرَهُ طُيُورٌ

بِزَاهِرِهَا السَامِي الذَرَى جَادَهُ الحَيَا تَشيرُ الثُرَيَا نَحْوَنَا و نَشِيرُ

و تتفاوت قسوة هذه الغربة المكانية على الشعراء وفقًا لتفاوت مكانتهم التي كانوا عليها قبل الغربة فهذه المحنة لا تقف عند عامة الناس ، بل تمتد لتشمل الملوك و الوزراء الذين لحقتهم المحنة و وضعوا في السجن أو نفوا من بلادهم و هناك نماذج على ذلك مثل : عز الدولة بن صمادح ، و المعتمد بن عباد .

ب- الغربة الزمانية :

هي تلك الحالة النفسية التي تصيب الإنسان داخل وطنه في مرحلة زمانية غير مواتية تجعله يشعر بالغربة بين أهله و ذويه في مجتمع قد نشأ فيه و يرجع ظهور هذا النوع من الغربة إلى ما كان يسود بعض الفترات التاريخية من فتن و صراعات سياسية و ظلم فبعض الحكام كانوا بمثابة سيف مسلط على رقاب العباد بما في ذلك الشعراء ، فهم يبغون في الأرض بغير حق و يظلمون الناس و لا يقدرون الشعر و الشعراء لجهلهم و لانشغالهم بتوافه الأمور ، يضاف إلى ذلك أن بعض الطبقات الاجتماعية استغلت الأوضاع المتدهورة و تسلقت حتى وصلت إلى مكانة و منزلة اجتماعية لا تستحقها ، و وصلوا إلى مراتب و مناصب دون امتلاكهم مقومات تجعلهم جديرين بها بل زاحموا الشعراء و المفكرين في مكانتهم الاجتماعية القديمة و أزاحوهم عنها مما عمّق لدى الشعراء الإحساس بالمأساة. و لقد أخذ التعبير عن هذا النوع من الغربة صورا متعددة

تبدأ بذم الزمان الذي عاش فيه هؤلاء الشعراء فهم يتوجهون باللائمة عليه و يلتمسون العذر لأنفسهم أن جاءوا بزمن ليس بزمانهم على نحو ما نجد في قول " أبي محمد بن مالك القرطبي "

وَ إِنّمَا العُذرُ لِي أَنْ جِئْتُ فِي زَمَنٍ لاَ الجِيلُ جِيلِي وَ لاَ اَلاْزْمَانُ أَزْمَانِي

كما أن هناك غربة تصيب الإنسان بسبب التقدم في العمر ، فهذا " ابن خفاجة " يبكي زمن الشباب في شعره و يندبه في حزن عميق ، و قد سطّر أبياتًا يحلم فيها باستعادة زمن الطفولة و الشباب حيث يقول :

أَرَقْتُ لِذِكْرَى مَنْزِلٍ ،شَطٍ ، نـَازِحٍ كَلْفَتُ بِأَنْفَاسِ الشِمَالِ لَـهُ شَمـَا

فَقُلْتُ لِبَرْقٍ يَصْدَعُ اللَيلَ ، لاَمِـعٌ أُلاَحِي عَن ذَلِكَ الرَبْعُ و الرَسْمـَا

وَ دُونَ الصِّبَا ، إِحْدَى و خَمْسُونَ حُجَةً كَأَنِي وَ قَدْ وَلَتْ رَأَيْتُ بِهَا حُلُمًا

فَيَالَيْتَ طَيْرَ السَعْدِ يَسْنَحُ بِالمُنَـى فَأَحْظَى بِهَا سَهْمًا و أَنَأْىَ بِهَا قَسَمًا

وَ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ ابْنَ عَشْرٍ وَ أَرْبَـعٍ فَلَمْ أَدْعُهَا بِنْتًا وَ لَمْ تَدْعُنِي عَمـًا

إن هذه الأبيات مشحونة بالانفعال ، و النداء { فياليت} { ياليتني} ، فكلها نداءات يراد بها التمني ، تمنيات اليأس الذي تتأجج في صدره رغبة عارمة في الرجوع إلى زمن الشباب .

ج-الغربة الروحية :

هي أن يشعر الشاعر بغربته في هذا الوجود كما في حالة الزهاد الذين يتحدثون عن غربتهم في هذه الدنيا و آمالهم في العودة إلى عالمهم الأول عالم الروح أو الآخرة .

فهذه الغربة الروحية هي نتاج لكل العوامل التي أنتجت الغربتين المكانية و الزمانية معا و إن كانت تأخذ بعدًا دينيًا يتصل بنفس الإنسان و روحه ، فهي مرتبطة ارتباطا أساسيًا بالدين الذي يحكمها و يحدد مسارها و توجهاتها و الذي يعمق الشعور بأن هذه الحياة التي نحياها و هذه الأرض التي نعيش عليها ليست هي حياة الروح الخالدة و لا هذه الدنيا باقية ، لذلك فهو يعيش فيه كأنه غريب ، و ينتظر هذا اليوم الذي تعود فيه الروح إلى عالمها ، فعلى الرغم من وجود هذا النوع من التعبير عن الغربة في الشعر المشرقي في مرحلة مبكرة فإن هذا الإحساس أخذ صورة أكثر بروزًا في الأندلس و أكثر تعبيرًا عن ذلك نظرًا لمشاهد الخراب و الدمار التي كانت

تتابع أمام أعين الأندلسيين ، فكانت هذه الظروف السياسية و الاجتماعية التي مرت بها الأندلس دافعا لجعل الناس و الشعراء خاصة يبحثون عن مخرج مما هم فيه ، فكانت الدين بمثابة ملجأ يلجأون إليه ليهون عليهم أمر هذه الدنيا و يزهدهم فيها و يعطيهم الدافع على تحمل مآسيها ، و في الوقت الذي يصبح أملهم أن يأتي ذلك اليوم الذي تتقلص فيه الروح من أسر هذا العالم و من أسر الجسد ، و ذلك عن طريق الموت الذي به تعود الروح إلى عالمها ، و هذا الأمل تسبقه خطوات فلا عجب أن يبدأ شعراء هذه الغربة أولى خطواتهم بالحديث عن حقارة الدنيا و هوان شأنها مما جعلهم يعرضون عنها و يعزفون عن متاعها و يفضلون حياة الفقر مع صعوباتها على حياة الغنى و ما قد تجره عليهم من تكالب و صراع .فهذا ابن اللبانة يقول :

اِنْفَضْ يَدَيْكَ مِنَ الدُنْيَا وَ سَاكِنِهَا فَالأَرْضُ قَدْ أَقْفَرَتْ وَ النَاسُ قَدْ مَاتُوا

و هذه النظرة إلى الدنيا و تصويرها على هذا النحو كثيرا ما تكررت لدى الشعراء حتى و لو لم يكونوا من الزهاد ، ذلك لأنها مستمدة من التراث الدّيني الذي يعيش في ظله أولئك الشعراء. و لقد كان الشعراء يفخرون بفقرهم و تجردهم الذي هو علامة تعلق قلوبهم بربهم و إعراضهم عما تتعلق به قلوب الناس في زمانهم الذي غابوا عنه كما يقول الششتري :

لَقَدْ تُهْتُ عَجَبًا بِالتَّجرُدِ وَ الفَقْرِ فَلَمْ أَنْدَرِجْ تَحتَ الزَمَانِ وَ لاَ الدَهْرِ
وَجَاءَتْ لِقَلْبِي نَفْحَةٌ قُدُسِيَةٌ فَغِبْتُ بِهَا عَنء عَالَمِ الخَلْقِ وَ الأَمْرِ

و لقد تجنب شعراء هذه الغربة الاختلاط بالناس فهم يتوجسون منهم بل يفرّون من لقائهم لأنه لا يرى إلا الشر في خلطتهم و لا يجني إلا الندم في مصاحبتهم ، كما أتاح لهم ذلك فرصة النسك و العبادة و التقرب إلى الله تعالى و هو مالا يتحقق بوجودهم بين الناس خاصةً أن نظرتهم للإنسان نظرة لا تلمح فيها سوى الشر و الغدر و الخداع على نحو يصير فيه الذئب أكثر أمنًا من الإنسان الذي يجب الفرار منه على نحو ما يصور " أبو بكر بن عطية " ذلك

بقوله :

كُنْ بِذِئْبٍ صَائِدٍ مُسْتَأْنِسًا وَ إِذَا أَبْصَرْتَ إِنْسَانًا فَفِرْ

إِنَمَا الإِنْسَانُ بَحْرٌ مَالَهُ سَاحِلٌ فَاحْذَرْهُ إِيَّاكَ الغَرَرْ

2-تعريف السجون :

أ/ السجن لغة : جاء في لسان العرب لابن منظور مجموعة من الشروح :

« السجن : الحبس .و السَّجن بالفتح المصدر : سجنه يسجنه سجنا أي حبسه و في بعض القراءة : (قال ربِّ السجن أَحَبُ إِليَّ) و السِّجن : المحبِسُ و في بعض القراءة (في قوله تعالى) :[قَالَ ربِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ]* (سورة يوسف الآية : 33)

فمن كسر السين فهو : المحبِس ، و هو اسم و من فتح السين فهو مصدر سَجنهُ سجنًا .و السجَّانُ : صاحب السجن ، و رجل سجين .مسجون ، وكذلك الأنثى بغير هاء ن و سجِّين : فعِّيل من السجن ، و السِّجِّين : السِّجن »[1] . و المعنى نفسه يذكره صاحب " معجم القاموس المحيط " الفيروز أبادي (*) ، بمعنى آخر السّجن في المعاجم اللغوية يتضمن معنى واحدًا و هو الحبس و حجز الحرية لسبب من الأسباب .

ب/ السّجن اصطلاحا : وردت تعار يف كثيرة للسجن من الناحية الاصطلاحية ، لكنها نتفق جميعا على معنى واحد : و هو أن السّجن بناء مخصّص لذوي المخالفات أو مكان لتأهيل السجين للاندماج في المجتمع ، و يتميز بهندسة معمارية تناسب حجز المعاقبين من أفراد المجتمع ، و يُبنى عادة بالاسمنت المسلح ، و توضع على نوافذه شبابيك حديدية ، و تصنع أبوابه من صفائح الحديد السميك ، و لا يدخل هذا البناء المخصص إلا من ارتكب جُرمًا أخلاقيًا

*-في اشارة الى : محاولة امرأة العزيز مراودة يوسف عليه السلام .عن نفسه

1- أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور : لسان العرب .ت: عبد الله علي الكبير .محمد أحمد حسب الله .محمد الشاذلي .مادة : سجن .دط بيروت : دار المعارف .دت.ج3.ص 1947

*-مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي : القاموس المحيط . فصل السين .باب النون .دط .بيروت : دار الكتاب العربي .1983م.ج4.ص:223

أو مخالفة اقتصادية ، أو قتل نفسًا و حكمت عليه المحكمة بما يتناسب و المخالفة التي ارتكبها بناءًا على مواد معنية في القانون تطبق عليه في السجن [1] .

هذا في الغالب الأعم ، و يدخل إليه أحيانا بعض أفراد المجتمع الذين يرتكبون أخطاء سياسية تتنافى و اتجاه الحكم القائم ، و يطبق عليهم في المحاكم ما يطبق على المخالفين للقانون السائد في المجتمع.

و نلاحظ اليوم أنه رغم كثرة المحاكم و السجون فان الجريمة آخذة في النمو و الإضطراد يومًا بعد يوم ، و تزداد بشاعة تقشعر منها الجلود ، و لو أن القصاص كان يجري مجراه على حسب نوع الجريمة لوفرنا ما ننفقه على السّجون لتشيد معالم أخرى ثقافية و اجتماعية تعود على المجتمع بالخير العميم [2] .

أما السّجن عند رجال القانون ، فهو وضع المحكوم عليه في أحد السّجون العمومية و تشغيله داخل السجن أو خارجه في الأعمال التي تّعينها الحكومة في المدة المحكوم بها عليه ، و لا تقل مدتها عن ثلاث سنوات و لا تزيد عن خمسة عشر سنة ، إلا باستثناء يقرره القانون صراحة(*) ، و لا تختلف عقوبة السجن في أسلوب تنفيذها عملا عن عقوبة الحبس مع الشغل غاية الأمر يوضع المحكوم عليه بالسجن في سّجن عمومي ، بينما لا يوضع المحكوم عليه بالحبس في هذا السجن و إنما في سجن مركزي ، إذا كانت مدة الحبس ثلاثة أشهر فأقل (*) ، أما إذا تجاوز الحبس ثلاثة أشهر نفذ هو الآخر في السجن العمومي [3] .

و يمكن أن نتطرق لتعريف آخر للسجن و هو أنه موطن آخر و هو غاية في الضيق

1–محمد الطّاهر عزوي :ذكريات المعتقلين .دط. وحدة الطباعة بالرو يبة (الجزائر) المؤسسة الوطنية للاتصال و النشر و الإشهار .دت.ص :11.

2 –محمد الطّاهر عزوي : المرجع السابق .ص:12

(*)–كما في حالة تعدد الجرائم ، و كما في حالة العود المنصوص عليه في المادتين :50/49

(*)–طبقا للمادة ¾ من قانون السّجون.

[3]–رميس هنام : النظرية العامة للمجرم و الجزاء .دط.الإسكندرية منشأة المعارف .دت.ص.135

محكم السدود و القيود .أما النتاج الأدبي فيه أو عنه فهو " حصاد السجن" على حد تعبير الشاعر " الصافي النجفي " . و ينسب إلى السّجن لعلاقة السبب و المكان ، لأن شرطه أن يكون الشاعر سَجينًا حقًا ، و ينظمه في السجن لا خارجه و لعلة السجن ذاته .و أما من حيث موضوعه فهو السّجن و ما يتصل به ، أو الحرية و التحرر و ما يتصل بهما من الظروف ، و هذا الشعر أحد شتي أدب السجون في الأدب العربي قديمة و حديثة .

و « في أدب السّجون أشجى التلاحين التي تهز الأفئدة الحُرة و النفوس الأبية »[1].

إن السجن سجون في مخيلة الشعراء : سجن في النفس ، و آخر في الأهل و المجتمع و ثالث في مبنى حقيقي ، و السجن صور متنوعة سواء أكانت بفعل سجان أم بفعل ظروف مطلقة و قد تصور الشاعر الإمام " محمد العيد علي خليفة " السجن محابس و هو الذي جرى بها و قضى قرابة ثماني سنوات رهين الإقامة المحدودة ، قال : [2]

فَأَعْرِضْ عَنِ الدّنْيَا بِوَجْهِكَ عَابِسًا وَ إِنْ كَانَ طَلْقًا وَجْهُهَا غَيْرَ عَابِسِ

جَفَهَا رَهِينُ المَحْبَسَيْنِ وَ عَافَهَا فَكَيْفَ يَوَالِيهَا رَهِينُ المَحَابِسِ

و مواقف الشعراء السُجناء قديمًا و حديثًا قسمان :

« فمنهم من وصف فنون البؤس و ألوان العذاب ، التي يعانيها السجين و تضل مذكر ذنب ، و أقسم الإيمان المغلظة ، و طلب الرحمة من حاكم يسجنه و حاكم يستطيع إنقاذه و شفع ذلك كله بروح سوداوية متشائمة »[3] .

و أما شعراء الموقف الثاني : « فهم من تحدى السّجن و الاضطهاد و أثبت أن البلاد محكم الرجال و أن الشدائد جلاء الجواهر أخلاقهم النفسية و حاسب الحكام الذين دفعوا به إلى

1–يوسف عز الدين : « أحمد الصافي النجفي في السجن» .مجلة الهلال « أدباء وراء القضبان» (السنة 81) ، عدد 1 ، يناير،1973 مصر :ص:42.

[2]محمد العيد خليفة «الديوان » تقديم : عمر بن قينه ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر .1992، ص:80.

[3]–رئيق خوري ، مقدمة ديوان حصاد السجن للصافي النجفي ، مكتبة المعارف بيروت ، لبنان ، 1983،ص :58،59

الحبس و هددهم بدمغة العار»[1] . بل بموجة الثورة لأن تشديد القيود و الحدود في الحياة يولد الانفجار و السخط و روح التحدي ، من ذلك قول" محمد العيد "

قُلْ لِلْوُلاَةِ دَعُوا التَّضييقَ و اقْتَصِدُوا فَرُبَمَا جَدّنَا التَّضْييقُ لِلمَرَحِ[2]

و عبر عن الأسر الأكبر (الوطن و المجتمع) داعيا غلى كسرِ القيود :

الأَسْرُ طَالَ بِكُمْ فَطَالَ عَنَاؤُكُمْ فَكُّوا القُيُودَ وَ حَطِّمُوا الأغْلاَلَ [3]

التحدّي و الثورة و المحاسبة و المغالبة، و هي السمات الغالبة في الشّعر العربي الحديث القليلة في الشّعر القديم . «إنّ هذا اللّون من شعر السّجون أبدع و أروع لأنه يفور من معين الغضب الإنساني الشّريف على الجور و الطّغيان »[4] .

و نتاج الشّر في السّجن تعبير عن حالة جماعيّة أكثر منها فرديّة . و ما الشّاعر السّجين إلا صورة مصغّرة تجسد مأساة جماعيّة شعبيّة ، و هو ما عبّر عنه الصّافي النّجفي بقوله :

قَضَيْتُ حُرًّا حُقُوقَ النَّفْسِ كَامِلَةً وَ اليَوْمَ فِي السَّجْنِ أَقْضِي حَقَّ أَقْوَامِ [5]

و قال زكرياء معبّرًا عن حقّ شعبه عليه ، و عن تحدّيه للسّجن :

حَسْبِي وَ حَسْبُ أُنَاسِي أَنْ غَدَوْتُ بِهِمْ عودًا يُعَطِرُهُمْ ذِكْرِيَ وَ أَحْتَرِقُ

وَ أَنْتَ يَا سِجْنُ لَوْ أَفْلَلْتَ نَاصِيَتِي رَأَيْتَنِي لِخُطُوطَ النَّارِ أَخْتَـرِقُ [6]

---

[1]–(م،ن) ، ص: 59.

[2]– ديوان محمد العيد (م،س) ، ص :382

[3]– ديوان محمد العيد (م،ن) ، ص : 339.

[4]– رئيق الخوري ، (م،س) ص 59

[5]–أحمد الصّافي النّجفي ، ديوان حصاد السجن ، مكتبة المعارف ، بيروت ، لبنان ، 1983، ص 81

[6]–مفدي زكرياء ديوان اللّهب المقدّس ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، ط2 ، 1991، ص 28–29

3-تطوّر شعر الغربة و السجون عبر العصور :

أ-شعر السجون في الجاهلية :

لاشّك أنّ استقراء ديوان العرب ، يكشف لنا عن العديد من القصائد المنظومة داخل مؤسسة عقابية ، لا نجزم بأنه يصحّ تسميتها سجنًا بالمعنى الحالي إذ لم يعرف عند العرب من الجاهلية سجون مخصوصة لهذا الغرض ، فالمعاقب أو السجين كان يحتجز حسب ما توفره الظروف ، إما في خيمة أو في دار أو في مكان محدّد للحبس ، و إن لم يتوفّر عند الجاهليين بناء مخصّص للحبس فإنّ المفهوم المعنوي له كان حاضرًا و يبرز ذلك خاصّة في أشعار بعض السّجناء الجاهليين الذّين سجنوا لأسباب متباينة ، و منها : الوشاية السياسيّة ، أو يكون الحبس بسب الحروب ، فيعتقل الشعراء كأسرى حرب ، كما حدث للشاعر " عبد يغوث الحارثي " الذّي أسره (الأهثم) في منزل زوجته ، يقول في أسره :

أَقُولُ وَ قَدْ شَدُّو لِسَانِي بِنَسْعَةٍ مَعْشَرَ تَيْمٍ أَطْلَقُوا مِنْ لِسَانِيَا

وَ تَضْحَكُ مِنِّي شَيْخَةٌ عَبْشَمِيَّةٌ كَأَنْ لَمْ تَرَ قَبْلِي أَسِيرًا يَمَانِيًا [1]

وكان الهجاء في الجاهلية -بدوره – طريقا إلى السجن فغير بعيد عن الحيرة كان في البحرين سجن لـ " عمر بن هند " ، سُجن فيه الشاعر الفتى " طرفة بن العبد " بعد أن هجاه بقوله :

فَلَيْتَ لَنَا مَكَانُ المَلِكِ عَمْرُو رُغُوشًا حَوْلَ قُبَّتِنَا تَخورُ

لَعُمْرَكَ إِنَّ قَابُوسَ بَنْ هِنْدٍ لِيَخْلِطَ مَلِكُهُ نُوكَ كَثِيرُ [2]

و مما قاله الشاعر (طرفة ابن العبد) في سجنه :

أَلاَ اعْتَزِلِينِي اليَوْمَ يَا خَوْلَةُ أَوْ غُضِّي فَقَدْ نَزَلْتُ حَدْبَاءَ مُحْكَمَـةُ العَضَّ

أَبَا مُنْذِرٍ كَانَتْ غَرُورًا صَحِيفَتِـي وَ لَمْ أُعْطِكُمْ بِالطَوْعِ مَالِيَ وَ لاَ عَرْضِـي [3]

---

[1]-الجاحظ : البيان و التبين .ت: عبد السّلام هارون .دار الجيل و الفكر .بيروت .(د.ت) .268/2.

[2]- سالم المعوش .شعر السجون في الأدب العربي و المعاصر .ص:41.

[3]-سكينة قدور حبسيات في الشعر العربي الحديث .ص.22.

و يمكن أن يكون الطريق إلى السجن بهجاء اجتماعي ، كما اشتهر عن الشاعر المخضرم (الحطيئة) الذي دخل السّجن بهجائه (الزبرقان بن بدر) إذ قال فيه :

مَنْ يَفْعَلْ الخَيْرَ لاَ يُعْدَم جَوَازِيهِ لاَ يَذْهَبُ العُرْفَ بَيْنَ اللهِ وَ النَاسِ
دَعِ المَكَارِمَ، لاَ تَرْحَلْ لِبُغْيَتِهَا وَ اقْعُدْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَاعِمُ الكَاسِي [1]

عرفت الحواضر في الجاهلية ضربا من السجون المهيأة لغرض العقاب ، كالسجون التي وضعها " النعمان بن المنذر " الذي وضع مجموعة قوانين منظمة للحياة العامة ، و من بين السجون التي استعملها النعمان " سجن الثويّة " و هو سجن المؤبد ، دخله الشاعر " عُدي بن زيد العبادي " و قال فيه روائع شعره من ذلك مثلا قوله :

آبْلِغَا عَامِرًا وَابْلِغْ أَخَاهُ أَنَّنِي مُوثِقُ شَدِيدٌ وِثَاقِيَ
فِي حَدِيدِ القِسْطَاسِ يَرْقُبُنِي الحَارِسُ وَ المَرْءُ كُل شَيْءٍ يَلاَ
فِي حَدِيدِ مُضَاعَفٍ وَ غَلُولٍ وَ ثِيْيَابٍ مُنْضَحَاتٍ خَلاَ

وَ قَال:

أَحَظِّي كَانَ سِلسِلَةً وَ قَيْدَا وَغْلاً وَ البَيَانُ لَدَى الطَبِيبَ[2]

و كان لـ (ابن المنذر) سجن " القطقاطة" بالكوفة ، و كان عنترة ابن شداد احد نزلائه و نجا منه بأعجوبة خلدها في شعره بقوله :

تُرَى عَلِمَتْ عَبْلَةُ مَا أُلاقِي مِنَ الأَهْوَالِ فِي أَرْضِ العِرَاقِ
طَغَانِي بِالرَّيَا وَ المَكْرِ عَمِّى وَ جَارَ عَلَى فِي طَلَبِ الصَدَّا
قَطَعْتُ وَرِيدُهُ بِالسَيْفِ حَزْدًا وَعُدْتُ إِلَيهِ أَحْجِلُ فِي وِثَاقِي [3]

[1]–حنّا الفاخوري .منتجاتالأدب العربي .المكتبة البوليسية بيروت .لبنان (د.تط) ، ص :59

[2]–سكينة قدور .الحبسيات في الشعر الحديث ، ص : 21.

[3]–المرجع السابق .ص:22

2-شعر السجون في صدر الإسلام و العصر الأموي :

إن المدونة العقابية التي كان يستند إليها التشريع الإسلامي في القرآن الكريم ، و السنة النبوية ، ثم اجتهاد الفقهاء ، و لعلى أبرز مبادئ هذه المدونة هو القصاص بعد ثبوت الإدانة لذلك لم تكن هناك حاجة ماسة للسجون إلا للمخالفات التي لم تضع لها الشريعة حدًا .

كما أن الخمرة كانت سببًا مهمًا للدخول إلى السجن في صدر الإسلام ، و بعدها في زمن الخلافة الإسلامية ، و تكثر الأمثلة على ذلك ، نذكر منها ك (أبو محجن الثقفي) الذي سجنه الخليفة " عمر بن الخطاب " بسبب معاقرته للخمر ، إذ نهاه " عمر " مرارا فلم ينتهي ، فنفاه إلى جزيرة هرب في طريقه إليها ، و التحق بـ (ابن أبي وقاس) فكتب إليه " عمر " يأمره بحبسه ، فأنشد يقول :

كَفىَ حُزْنًا أَنْ تَرِدى الخَيْلَ بِالقَنَا ... وأَتْرُك مَشْدُودًا عَلَيّ وِثَاقِيـَا

إِذَا قُمْتُ عِنَانِي الحَدِيدِ وَ غَلِقْتُ ... مَصَارِيعَ مِنْ دُونِي تَصُمُّ المُنَادِيَا

...وَللهِ عَهْدٌ لاَ أَخِيسُ بِعَهْدِهِ ... لَئِنْ فَرِجْتُ ألاَّ أَزُورَ الحَوَانِيَا[1]

و كان " عمر " يستعين بالآبار المهجورة لحبس الأشخاص ، مثل (الحطيئة) الذي حبس في بئر فقال :

مَاذَا تَقُولُ لأَفْرَاخٍ بِذِي مَرَخٍ ... زَغْبُ الحَوَاصِلِ لاَ مَاءٌ وَ لاَ شَجَرُ

أَلْقَيْتَ كَاسِبَهُمْ فِي قَعْرِ مُظْلِمَةٍ ... فَاغْفِرْ عَلَيْكَ سَلاَمُ اللهِ يَا عُمَرُ [2]

إن سجون (بني أمية) تميزت بالكثرة و التنوع تزايد الخصومات السياسية و القبلية و المذهبية ، فسواء في عهد " معاوية أبو يزيد " فقد سجن الكثير من الخوارج و العلويين . و توالى سجن المعارضين في الولاة بعدهما ، إلى أن بلغت العناية بالسّجون أشدّها في عهد " الحجاج بن يوسف الثقفي " الذي عُني ببنائها و تفنن في تنظيمها ، و نسبت إليه سجون كثيرة ، فلا غرابة في ذلك و هو المعروف ببطشه و كثرة سجناته و حسمه و سرعة قطعه حتى قبل ثبوت الإدانة . كما

[1]-المرجع السابق .ص: 24.

[2]- حّنا الفاخوري .منتخبات الأدب العربي ، ص : 42.

عرفت المنافي أيام الأمويين كجزيرة (بيش) في بلاد اليمن و (السند) و (خرسان) و (الطائف) التي نفي إليها (ابو عباس الأعمى) و منهم " ابو قطيفة" الذي سجل قصيدة في الحنين إلى الأوطان :

أَقْطَعُ اللَيْلَ كُلَهُ بِاكْتِئَـابِ وَ زَفِيرٍ فَمَا أَكَادُ أَنـَامُ

نَحْوَ قَوْمِي إِذْ فَرَقَتْ بَيْنَنَا الدَا رُ و حَادَتْ عَنْ قَصيدَها الأَحْلاَمُ [1]

و نخلص إلى أن السّجون في عصر بني أمية قد كانت مستقرا دفعت إليه المذهبية الدينية فكانت بابًا واسعً دخل منه الكثيرون إلى السجن ، هذه المذهبية التي ضمت : الدين ، و التعصب و الشعوبية و الزندقة و الصراع على السلطة و الثورة ...(و هناك نماذج كثيرة في تاريخ الأدب العربي تدل دلالة واضحة على أن المذهبية كانت سببا لدخول السّجن)[2]

3- شعر السّجون في العصر العباسي :

عرفت مؤسسة السّجن في هذه الدولة .المترامية الأطراف ، المتخذة لأسباب التقدم و النهوض في شتى مجالات الحياة – تطورًا ملحوظًا و قد عرفت مزيدًا من الضوابط و التنظيمات و ما يدلل قولنا هو استقرار شعر السّجون في هذا العصر و الذي يميل إلى تبلور بعض المفاهيم السياسية و الاجتماعية و الفكرية و هذا ما يفسر تخصيص السّجون في هذه الفترة حيث وجد سجن " الجرائم " و سجن " الزنادقة" و سجن " الثوار على الحكم..."

و الدارس للأحوال العامة في هذا العصر يجد المسوغات العديدة لنمو ظاهرة شعر السّجون ، فهو في تطوره لم يخل من الحروب و القمع و الإرهاب و الثورة و التمرد ، و هذه بدورها لم تخل من شعراء قاموا بها أو أيدوها ، فكان نصيبهم السّجن [3] .

إن إحصاء أدباء السّجون في العصر العباسي يكشف عن عدد هائل من هؤلاء الشعراء

---

[1]– سكينة قدور .الحبسيات في الشعر الحديث ، ص : 30

[2]– سالم المعوش .شعر السجون في الأدب العربي الحديث .ص: 44

[3]–ينظر المرجع السابق ، ص : 49.

يقارب حسب إحصائيات (عبد العزيز الحلفي) [1] الأربعين شاعرًا ، سُجنوا لأسباب مختلفة ، نذكر أشهرهم كـ: " المتنبي " الذي دفع به طموحة نحو الشهرة و المجد إلى السّجن ، و قال في ذلك مخاطبا سجنه بأنفه :

كُنْ أَيُّهَا السِّجْنُ كَيْفَ شِئْتَ فَقَدْ وَطَّنْتَ لِلْمَوْتِ نَفْسَ مُعْتَرِفِ

لَوْ كَانَ سُكْنَايَ مِنْكَ مُنقَصَةٌ لَمْ يَكُنْ الدُّرُ سَاكِنُ الصَّدَفِ[2]

و نذكر قوله و قد سمع حمامة تنوح على شجرة عالية و هو في الأسر :

أَقُولُ وَ قَدْ نَاحَتْ بِقُرْبِي حَمَامَةٌ أَيَا جَارَتَا هَلْ تَشْعُرِينَ بِحَالِي

مُعَاذَى الهَوَى مَاذُقْتُ طَارِئَةَ النَّوَى وَلاَ خَطَرَتْ مِسْكِ الهُمُومُ بِبَالِ

أَيَضحَكُ مَأْسُورٌ و تَبْكِي طَلِيقَةٌ وَ يَسْكُتُ مَحْزُونٌ وَ يَنْدُبُ سَالِ[3]

و غير هؤلاء كثيرون كـ :أبي نواس ، و أبي العتاهية ، صالح ابن عبد القدوس ، و المعتمد ابن عباد ... و إذا عرفنا من خلال هذا التعريج المختصر أحوال السّجن و شعرائه عبر العصور ، يطالعنا تساؤل يفرض نفسه : مع التطور الخطير الذي عرفته البلاد العربية بعد أن نهضت من كبوتها و نفضت غبار الزمن ، إيذانا بالانطلاق مع الحياة العصرية ، و ابتداء من عصر العلم و سلطان العقل ، و الحرية ، حمل استطاعت العهود و المواثيق أن تفي بالنعيم الموعود لسجناء العصر الحديث ؟ بمعنى آخر ما هي حال شعر السّجون في هذا العصر ؟ و ما الجديد الذي أضافه في دفع الحركة الأدبية قدما نحو الأمام ؟

4-شعر السّجون في عصر النهضة وما بعد النهضة:

إن استقراء سطحي لسير الشعراء المسجونين يكاد يجزم بأن الظلم قد ميّز في أحيان كثيرة مسيرة الشعراء ، فعوامل سجنهم دارت حول ثلاثة : السياسة ، الاجتماع ، و الثقافة أما عن شعراء عصر النهضة ، فالملاحظة التي يمكن ضبطها هي أن أغلب حالات السّجن تعلقت

[1]- صاحب كتاب " أدباء السّجون "

[2]-سالم المعوش .المرجع السابق ، ص : 45.

[3]-حنا الفاخوري .منتخبات الأدب العربي .343.

بالجرائم السياسية التي لا يخجل أصحابها عن الاعتراف بها أو الكتابة عنها ، بل لا تكاد تخلو سيرة أحدهم من الافتخار بها ، و هذا ما يفسر كون أغلب نتاج الشعراء المسجونين من نصوص شعرية كلها قصائد سياسية .

و يمكننا تقسيم شريحة الشعراء الذين وصلتنا سجنياتهم إلى مؤسستين عقابيتين :

- إحداهما : تلك التي أنشأها المستعمر لردع كل الأصوات الداعية إلى التحرر .
- و أخرى أقامتها الأنظمة العربية الحديثة على أنقاض سابقتها [1].

و هناك من الشعراء من ذاق ويلات المؤسستين معًا.

إن نشوء شعر السّجون في عصر النهضة العربية كان نتيجة حتمية لعدم استقرار المجتمع العربي ، فالشاعر – خاصة – رفض العيش في صلح مع واقعه السياسي و الفكري العاتم أو الظالم أو الجائر ، و بحث عن متنفس أحسن بإمكانه أن يصل أفكاره الخاصة بموضوع الحرية، و الديمقراطية و العدل و المساواة . (فكان الشعر من بين المنابر الثقافية ، يؤدي دورًا خطيرًا في إدارة معالم الصراع من أجل التقدم نحو الأفضل) [2] .

و إذا أردنا تعداد الموضوعات الخاصة بسجنيات عصر النهضة وجدناها لا تخرج عن مواضيع: الظلم و الاستبداد ، الحرية ، الأوضاع الاجتماعية و السياسية ، و قضايا الاستعمار ، قضية الأرض و الهوية و السّجن ، و الغربة و البحث عن الذات ،الحنين ...

أما عن شعراء سجن عصر النهضة فسنأخذ منهم على سبيل الاستدلال بعض الشعراء الذين كتبوا في الموضوعات السالفة ،فهذا " أديب إسحاق " [3] يسجن بسبب تنديده الدائم بالظلم و مناوءته و للاستبداد و يقول في قصيدته (نظم الحر) مخاطبا ساجنه " محمد سلطان باشا" :

---

[1]–ينظر ، سكينة قدور .الحبسيات في الشعر العربي الحديث .ص:45 .

[2]تمهله كثيرًا فمات في الحدث بلبنان .من أشهر مؤلفاته : (الدُرر) و هي منتجات من أشعاره و خطب و مقالات .

[3]–أديب إسحاق (1856–1885) شاعر متلهب الذكاء ساهم في رفع لغة الصحافة من مؤلفات (الدرر) .

أَمَوْلاَيَ هَذَا نَظْمٌ حُرٌّ وَ تَلَوْهُ كَلاَمُ سَجِينٍ أَوْ ثَقَتْهُ الأُثُـرُ

أَيَبْعُدَ ذُو فَضْلٍ وَ يَدْنَى مَنَافِقٌ وَ يُسْجَنُ وَافٍ حِينَ يُطْلَقُ غـادِرٌ

وَيُكَرَّمُ جَاسُوسٌ مِنَ الصِدْقِ حَائِدٌ ، وَ يُظَلِمُ هَمَّامٌ عَلَى الحَّقِ سَائِرٌ [1]

فالشاعر كان مجاهرًا برأيّه ، لا يخاف في الحق لومة لائم ، فرغم الصداقة التي جمعته ببعض الحكام إلا أن صراحته لم تمنع من زجه في السّجون .

أما الشاعر (فارس الخوري) فقد كان في سجنياته أكثر ميلا للموضوعات الوطنية ، فقد هاجم الأتراك و ندد بتنكيلهم بأبناء قومه ، و في حق العرب عامة ، و من ذلك قوله في قصيدته (في ذكرى الشهداء الذين أعدمهم السفاح " أحمد جمال باشا ") :

بَلْ كَيْفَ يَهْنَأُ لِي عَيْشٌ وَ يُسْعِدُنِي دَهْرِي وَ تَعْشُنِي الدُنْيَا وَ تُرْضِينِي

وَ مَعْشَرِي بَيْنَ مَطْرودِ وَ مُنْتَبـذٍ عَبْرَ الفَيَافِيَ ، وَ مَطْلُبٌ وَ مَسْجُونِ

لاَحَتْ لَهُمْ فُرْصَةٌ فِي العَرَبِ سَانِحَةٌ فَنَكَلُوا وَ اسْتَبَاحُوا كُلَّ قَانـوُنِ

وَسَوَا لَنَا كُلَّ مُغْتَرٍ يَعِيثُ بِنـا نَهْبًا ، وَ يَرْجِعُ بِأَمْوَالِ قَـارُونِ .[2]

و القصيدة طويلة تزيد عن سبعين بيتا ، لا تخلو من صراحة منقطعة ، و جرأة كبيرة تعكس مواطن الظلم و الاستبداد التركي في بلاد العرب (خاصة في سوريا و لبنان) و تعكس من جهة أخرى ، جهاد الأحرار الذين يتوقون إلى رؤية بلادهم بعيدة عن أهواء النير التركي حرة، مستقلة تبين تاريخها كما تريد لا كما يراودها لها .و في قصيدته تصريح مباشر بموقفه من السّجن الظالم الحائر ، لسجنه معروف بالفضيلة ، وصدق النية ومدى نقاء السريرة فكان ذلك سببا في إيذائه وزجه السجن بدوره.

وهو المصير نفسه الذي لاقاه الشاعر : " جميل صدقي الزهاوي" الذي أعلن موقفه المعادي للظلم وسياسة الحكام التي ما فتأت توقع بالمفكرين الأحرار ، ومن

[1]–سالم المعوش ، شعر السّجون في الأدب العربي الحديث و المعاصر ص:58.

[2]–المرجع السابق .ص : 59.

هؤلاء المهاجمين السلطان "عبد الحميد " الذي كان سببا في دخوله السجن، بقوله في قصيدته (أيام بغداد) :

أَتَعُودُ بَعْدَ تَصَرُّمٍ وَ نَفَاذِ أَيَامَ بَغْدَادَ إِلَى بَغْـدَادِ

أَيَامَ بَغْدادَ التِّي فِي مِرّهَا كَانَتْ عَوَادِي الدَّهْرِ غَيْرِ عَوَادِي

إِذْ لَيْسَ بَغْدَادُ كَمَا تَلْقَى وَ لاَ حُكَّامُ بَغْدَادَ ذَوِي اسْتِبْـدَادِ [1]

لقد مثّل محور الحرية ركيزة شعر السجون في عصر النهضة و ما بعده ، فكثير من الشعراء جعلوا من الحرّية موضوع نظمهم و وسّعوا مفاهيمها و نطاقها و من بين هؤلاء الذين أمنوا بأن الحرية هي ضالة المؤمن في عصر البناء و التحديث و التقدم : نجيب الرايس ، عباس محمود العقاد ... و إذا وقفنا وقفة قصيرة مع حرية " العقاد" المفكر و الشاعر الذي سُجن لأرائه السياسية وولعه بالحرية ، لوجدنا أن معظم أعماله تمحورت حول تطوير الحياة العربية من جميع جوانبها و قد كان ذلك لا يتأتى إلا عن نفس حُرة لا تزوح تحت أي قيد ، و كانت دعواته السياسية – الشعرية منها و النثرية – تحريضية صريحة ، و كان نقده شديدا مباشرا السياسة الحكام ، مما عجّل بدخوله السجن ، و قد أرخ العقاد لهذه التجربة في كتابه " عالم السدود و القيود " و الذي عرف فيه السجن العقائدي قائلا : " عالم السدود، و القيود عندي و عند كل سبيله (هو ذلك البناء المعزول في ناحية من الأطراف في بعض أحياء القاهرة الواسعة الكثيرة و كأنه يحسن نفره الناس منه و نفرته من الناس ...) [2].

و يقول في كتابه : (خطر لي و أنا أخطو الخطوة الأولى في أرض السّجن ، قول الفيلسوف"ابن سينا" و هو يخطو مثل هذه الخطوة :

1 –سالم المعوش .شعر السجون في الأدب العربي الحديث و المعاصر ص : 61.

[2]–عباس محمود العقاد .عالم السدود و القيود (د.ط) منشورات المكتبة العصرية ، بيروت (د.ت) ص: 05

دُخُولِي بِاليَقِينِ بِلاَ اِحْتِرَامِ وَ كُلُّ الشَكِ فِي أَمْرِ الخُرُوجِ)[1]

فها حبس العقاد عند دخوله السّجن كان أمر خروجه أين و كيف سيتم ؟

و إذا تفحصنا ديوان (العقاد) وجدناه يقول في مطلع قصيدة " القلم المسروق " .

زَمَلَنِي فِي السِّجْنِ ذَاكَ القَلَمُ وَ نَالَهُ مَا نَالَنِي مِنْ قَسَمِ

وَ مَسَّ مِنْ فِكْرِي وَأَسْرَارِهِ مَارَامَهُ النَّاسُ وَ لَمْ يَرَمِ[2]

و الشاعر هنا يأسف لفقدان حريته معبرا عن ذلك – تلميحًا – بفقد قلمه كما يعبر عن استيائه لمصير الشعب خارج السّجن .

و إذا اكتفينا بهذه النماذج المقتضبة لطول الحديث فيها ، فإننا سنحمل عموما خلاصة سجنيات عصر النهضة بالقول : أن موضوعات سجنيات هذه الفترة الأدبية قد تنوعت و تعددت و إن التقت جميعا تحت عنوان واحد هو رفض الظلم و الدعوة للحرية و الديمقراطية و المساواة و الحقوق و رفض التدخلات الأجنبية و الدفاع عن الضعفاء ، هذه الموضوعات التي رسمت طريقا لأصحابها انتهت بهم في السّجن في أهون الحالات ، هذا السجن الذي أرخ فيه الشاعر لقضايا قومه العربية و المصرية تأريخا مكتوبًا بالدم ، و صور في معاني الصمود و الاحتمال و الفكر و الإخلاص .اشتملت موضوعات السّجنيات على الروح الوجدانية ، إذ كثيرًا ما عبر الشاعر السجين عما تفيض به نفسه من التوق للعالم الخارجي ، بسبب ما يعانيه من القهر المزدوج على جسده و روحه .إن هذه التجربة في شعر السّجون ، كانت في المغرب العربي مماثلة للتي كانت في المشرق إذ أن الشعراء قد أنشأوا قصائد في ظروف مماثلة ، و لدوافع مشابهة ، دعت إليها نيران القهر و التسلط ، فصوروا في نتاجهم معاني الكفاح الطويل ، الذي خاضه الشعب ضد المستعمر و سنمثل لهذه التجربة في الشعر السجني بالمغرب العربي ، بالتجربة الجزائرية ، لنتعرف باختصار على تطور هذا الشعر في الجزائر كنموذج لهذه التجربة بالمغرب العربي .

5–شعر السّجون في الأدب العربي المعاصر :

[1]- المرجع نفسه .ص:07

[2]–عباس محمود العقاد .ديوان العقاد (د.ط) (د.ت) ص: 15.

إن الحديث عن أدب السجون في الشعر المعاصر ، هو حديث له مبدأ و ليس له منتهى إذ أن الحياة السياسية الخاصة قد أثرت على جميع الشعراء المعاصرين ، فأطلقوا العنان لأقلامهم كي تخط أفكارهم و مواقفهم ، و التي عادة ما يراها الحكام زندقة سياسية و خروجا عن المشروع فينتهي الشاعر إلى قضبان السجن ، و هو مقتنع عادة بأنه على حق و الحكام في قرارهم باغون متسلطون : أنه أمر مرتبط بالزمن العربي الحديث و المعاصر التي نحث فيه الديمقراطية منحى عصي الحل ، صعب النقاش بين فئتين ، تعتقد كل واحدة أنها على حق ، هي فئة الحكام من جهة و المحكومين من جهة أخرى .

و يعالج شعر السجون المعاصر الأزمات الاجتماعية و السياسية و الثقافية ، بالإضافة إلى أزمة الديمقراطية ، و كان لكل شاعر موقفه الخاص ، و وجهة نظره النوعية ، باختصار يمكننا أن نعدد موضوعات شعر السجون في الأدب العربي المعاصر في موضوعات أهمها :

*الظلم بكل جوانبه ، و الظلم الاجتماعي و الفكري ، و الظلم الإنساني الذي يحرم الشاعر من حقه في الممارسة الحرة و كسب لقمة العيش [1]

* العبودية التي يرى فيها الشاعر استلابا ، لروح الشاعر فضلا عن جسده ، حيث يسعى الحاكم إلى تمديد سلطته التقديرية في تفسير القانون بما ينفعه ، و يضر خصمه ، و لعل أبرز مثال الاستعباد في الأقطار العربية ، ما يمارس على الشاعر الفلسطيني الذي يواجه حالة رهيبة من عدم الاستقرار .

* الإرهاب و القمع : إذ (تبدو مقولات الظلم ، و التخريب و القمع و الإرهاب و العنف ... متقاربة ، فهدف الظلم واحد... ففي شعر السجون نجد شعر السجين ملاحقًا بكابوس الإرهاب معتقدًا أن " التاريخ غاص بالقيود و أنه يوجد من جديد ...") [2]

*العنف : (المقصود بالعنف حصول أقصى درجات العقوبة على الجسد)[1] ، و هذا العنف ممارس من جهتين ، من جهة الحاكم على الشاعر و من جهة الشاعر نفسه هذا الحاكم مثلا :

[1]–أنظر : سالم المعوش .شعر السّجون في الأدب الحديث و المعاصر . ص : 173.

[2]–سالم المعوش ، شعر السّجون في الأدب الـ ص : 2.

قصيدة " طليقة ثم الحدث " للشاعر النواب الذي يمجد فيها الإسلامبولي لاغتياله أحد مواقع الظلم و عموما تتعدد موضوعات هذه السجنيات ، و ان تقاربت في وجهتها العامة ، و هي النزوع للذات و رفض جميع القيود أما عن الأسماء الكثيرة التي حملت لواء هذه الموضوعات فنذكر على سبيل التمثيل لا الحصر : بدر شاكر السياب ، سليمان العيسى ، عبد الوهاب البياتي محمد سوقي ، سميح القاسم ، محمود درويش ...و كلهم عاشوا تجربة السّجين .

ثانيا :تجليات الغربة والسجون عند بعض الشعراء :

(نماذج عن الأشخاص الذين عاشوا الغربة والسجون)

-1- أحمد الصافي النجفي :

الشاعر أحمد السيّد الصافي مسقط رأسه قرية الغري [2] قرية صغيرة في محافظة النّجف ، موطن الشيعة ، والشيعة العلوية ، وكان تاريخ ميلاده سنة(1886م / 1316 هـ)[3] ، إن نسبه متصل بأسرة النبي صلى الله عليه وسلم .

«حيث قدمت أرته من الحجاز واستوطنت جوا ر البصرة وينتهي نسبها كذلك إلى الإمام علي رضي الله عنه ».[4]

نشأ في أسرة متوسطة الحال وأشتغل السياسة في شبابه ومارس مهنة البناء إلى أن انقطع إلى نظم الشعر ، كان كثير التنقل بين العراق وبلاد الشام وإيران ... وجعل الصافي من شعره موردا صافيا لفهم شخصيته ، وهو عربي مسلم العقيدة ، علوي المذهب ، حيث قال عن شعره :[5]

فَشِعْرِي مِرْآتِي وَلاَ تَعَبٌ بِهِ وَ هَلْ تَتْعَبُ المِرْآةُ مِنْ عَكْسِ أوْضَاعِ

---

[1]- المرجع نفسه .ص: 220.

[2]-« قرية على شاكلة قرى العراق يومئذ، وكانها قليلون»

[3]-إبراهيم كيلاني ، الشاعر النجفي ، منشو ، سوريا . 1980 . ص: 7 .

[4]- سلمان هادي الطبعة (م، ة) ، ص:111 .

[5]-إبراهيم كيلاني (م، س) ، ص : 4.

عاش كريما سخيا معطاء مُحبًا للخير على الرغم من فقره و حاجته ، من ذلك أنه تبرع يومًا لِمشروع اليتيم في فلسطين ، و حين تلقى رسالة شكرا رد عليها شعرا :

لَكِنْ بِيَّ لِلْسَخَاءِ شَوْقًا يَصُدُّهُ فَقْرِيَ القَدِيمُ [1]

كما جرب الغربة والرحلة معًا في ربوع الشام والعراق وبلاد فارس وجرب المنفى قهرًا حينًا واختيارًا حينًا آخر فحيث إليه العزلة هروبًا من الناس وضيق المدينة

فَضَاعَفْتُ عُمْرِي يَبْرِك العِرَاقِ وَإِلاَ لَضُعْتُ وَضَاعَ العُمْرُ [2]

وعبر عن هجره للناس بقوله:

وَأَشْكُرُ كُلَ خِل لَمْ يَذْرِنِي فَإِنَّ زِيَارَتِي أَنْ لاَ أُزَارَ [3]

وهو فوق ذلك محب الطبيعة بكل مكوناتها .بحرًا وبرًا . وميال إلى بساطة الريف كاره للحضر (المدينة) وقصورها ، كثير التشاؤم والحزب إلى درجة السوداوية ، المغرقة في الظلام وظل الصافي طول حياته محافظًا على زيه وعيشه ، أعزبًا وإن حاول أهله تزويجه . رافضًا للزواج على طريقة أبي العلاء المعري . وقد تأثر به كثيرًا ، قال معبرًا عن تمسكه بالتقاليد دون التقليد.[4]

عِفْتُ الزَوَاجَ وَزَيُ العَزْبِ إِنَهُمَا سِجْنٌ لِرُوحِي وَجِسْمِي يُوَرِثُ النُصُبَا .

وأما سجنه وشعره في السجن ، فإن الشاعر قد ذاق ضناه ومرارته فضلاً عن التشرد والترحال وسوء الحال على الرغم من انه أستاذ اللغة العربية والفرنسية وقد درسهما في " الطاهران " وكتب بهما في الصحافة وترجم، وبقي في المحمّرة وطهران مدة ثماني سنوات لكنه لم يستقر وبعد عودته إلى العراق مع بداية الثورة مع الانجليز ، شرع في التحضير لها حتى صار متابعا من البوليس الانجليزي ففر إلى لبنان لكن الاستعمار وراءه

[1]–ديوان هواجس ، مكتبة المعارف ن بيروت ، ط3 ن 1982 ن ص : 165 .

[2]–إبراهيم الكياني ، (م،س) ،ص: 07 .

[3]–ديوان اللفحات ، مكتبة المعارف ن بيروت ، لبنان ، ط3 ، 1983 ، ص: 274 .

[4]– إبراهيم الكيلاني ، (م، س) ، ص: 9

يلاحقه في كل مكان ، أودعه البوليس الفرنسي في أحد المعتقلات في بيروت العاصمة اللبنانية التي كانت تحت الانتداب الفرنسي .وكان الأمر بإذن صادر من حكومة الانتداب البريطاني في دولة العراق أما تاريخ سجنه فهو سنة 1941 ، والحرب العالمية الثانية قائمة وتسير نحو الأتساع في العالم وأجبرت الشعوب العربية على دخول هذه الحرب بطريق غير مباشر قهرًا غالبًا غير أن الصافي قصرت مدة سجنه وقضى أياما معدودة لم تزد على ثلاث و أربعين يوما فأما التهمة المنسوبة إلى الشاعر السجين فتختلف عن التهم التي تلصقها فرنسا بالجزائريين حيث كانت . التواطؤ مع مناصري النازية في العراق وفي بلاد الشام ضد الحكومة الفرنسية والبريطانية .«ولا بد أن الاستعمار البريطاني اعتبر الشاعر نازيا لأنه كان يفرح بانكسارهم عندما كان يسمع صوت برلين ويأمل بيوم الخلاص منهم ومن أذنابهم »[1] ، و قد وصف الانجليز بالخمول و العجز و الجبن أمام الألمان .

يَصُولُ الإِنْجْلِيزُ عَلَى ضَعِيفٍ وَ لاَ يَبْدُونَ لِلْخَصْمِ العَنِيفِ [2]

و أما السبب الحقيقي في سجنه فهو ثورته على الاستعمار الانجليزي في كل شبر وجد فيه في البلاد العربية و تصريحه بالحرب عليه في معظم شعره ، و منه قوله :

أُحَارِبُ جِنْسَ الإِنْجليزِ لأَنَنِي وَقَفْتُ عَلَى نَصْرِ الحَقِيقَةِ مَخْذَمِي [3]

و كان نتاج سجنه ديوانا من الشعر ، لم ينشر إلا بعد وفاته و هو " حصاد السجن " ، و كان السجن عنده دافعا و موضوعا و مكانا للشعر ، و منه اتخذ هذا البحث مدونة الدراسة ، و ترك الصافي ، ديوانه هدية لكل سجين حيث قال:« إلى كل سجين ومرشح للسجن في سبيل الحرية والواجب[4] » بقي "الصافي " خارج وطنه (العراق) وحلاله المقام في لبنان وعن ما كانت الحرب الأهلية منذ تعرض 1975 تعرض الشاعر لها وأصيب بجروح فزاد مرضه تشعباً ونُقل إلى مدينة الطب للاستشفاء وكانت وفاته يوم الاثنين 27جوان

[1]– يوسف عز الدين : أحمد الصافي النجفي في السجن ، (م، س) ص :44.

[2]–ديوان حصاد السجن –مكتبة المعارف بيروت لبنان 1982 ص : 114.

[3]– (م،ن) ، ص : 126.

[4]–(م،س) ، ص7

1977 م ، وحفت في النجف الأشراف.[1]

لم يترك الشاعر غير الشعر .وكتابات أخره .وقال عن عدد دواوينه المطبوعة في حياته [2]:

وَلِي تِسْعُ أَيَاتٍ ،دَوَاوِينٌ تِسْعَةٌ حُوتْ شِعْرِي الَذَرِيُ فِي عَصْرِناَ الدُرِي.

ويضاف إليها "تعريب رباعيات الخيام " ،(دمشق) سوريا "1984" وهي مرتبة :

–ديوان الأمواج ،دمشق (سوريا) 1932 / – ديوان التيار،دمشق (سوريا) 1946.

– ديوان شرر ،بيروت (لبنان) 1952/ – ديوان الأغوار ،بيروت (لبنان) 1961

– ديوان الشلال ،بيروت (لبنان) 1962 ./ – ديوان ألحان اللهيب ، بيروت (لبنان) 1962

– ديوان أشعة ملونة ،بيروت (لبنان) 1971 /– ديوان هواجس ،بيروت (لبنان) ط3،1983 – ديوان اللفحات ،بيروت (لبنان) ، ط3 ،1983/– ديوان حصاد السجن ،بيروت (لبنان) 1983.

وتحدث الشاعر عن المخطوط من شعره فقال : طبعت لي عشرة دواوين ولدي خمسة دواوين مخطة «أي مخطوطة وهي : شباب السبعين –بلا اسم –كما جاء– تمرد المشبب – المطعم .وهذا الأخير أهم من كل دواويني لأنه اشتركت فيه ألام المرض »[3]

2–محمد العيد آل خليفة :

[1]-مجلة المورد (م،س)،ص120،121 .

[2]–ديوان اللفحات ، بيروت (لبنان) .الطبعة (3)

[3]–مجلة المورد (م،س)،ص:118 .

إنّ محمد العيد آل خليفة شاعر قاوم و ناضل و أصلح بشعره دون أن يصيبه ملل ، لكن في السنوات العجاف أصابته الخيبة ، و أثرت فيه تأثيرا حادا فاغترب بروحه و اتجه اتجاها صوفيا بعيدًا عن النّاس و الأصدقاء ، يقول [1] :

ظَنَنْتُ فِي النَّاسِ خَيْرًا فَخَابَ ظَنِّي وَ خِبـْتُ
كَمْ قُلْتُ شَيْئًا كَثِيـرًا فِي مَدْحِهِمْ وَ كَتَبـْتُ
لَقَدْ كَذِبْتُ فَحَسْبِـي فِي شَأْنِهِمْ مَا كَذِبْـتُ
وَلَيْتَ نَحْوَكَ وَجْهِي وَ تُبْتُ يَارَبِي تُبـْتُ

و في آخر المطاف يفر محمد العيد من الجزائر العاصمة لأنها تعد مأوى الشعراء المصلحين أمثاله ، بل لعلّها .لم تعد الحلم الذي يحقق له مركزه الاجتماعي و السياسي و الأدبي حين أكتشف في ظل ذلك أن نجمه بدأ يأفل رويدًا رويْدًا ، فخرج منها إلى عوالم أخرى بحثا عن محمد العيد (الماضي) يقول : [2]

مَا فِي الجَزَائِرِ مَجْلِسٌ أُلْهِي بِهِ نَفْسِي وَ أَسْتَهْوِي إِلَيْهِ فُؤَادِي
أَمْسَيْتُ لاَ مِنْهَا وَ لاَ مِنْ أَهْلِهَا وَ القَوْمُ قَوْمِي وَ البِلاَدُ بِلاَدِي

إن السنوات التي جاءت بعد 1945 تجعلنا نحس أن محمد العيد قد تغير في رؤيته من صوت الشعب إلى صوت الشاعر الفرد فكأنه – و قد قدم له كل ما في وسعه – لم يجد منه استجابة بل ذهب صوته أدراج الرياح ، و خضم هذه الغربة الروحية لم يجد محمد العيد إلا اللّيل يفر إليه و يفرغ ما بشعوره ، و في الليل تتجلّى الحكمة و الوقار ، و يفتح عالم الرؤى أبوابه « فاللّيل منذ كان الإنسان على الأرض رواق كبير يستجمع فيه الإنسان أفكاره ، و يرسل أحلامه في صمت و عمق ، و هو منذ كان وحي الشعراء و الفلاسفة و ميدان خلواتهم ، و في

1-ديوان محمد العيد ،ش و ن ت ،الجزائر 1979 ،ص364

2- المصدر نفسه ، ص 522.

اللّيل ما في الإنسان من سكون و رهبه ، و ما فيه من ثورة و عنف ، و كثيرا ما يجد الشاعر و الفيلسوف نفسيهما في اللّيل » .[1]

و قد بحث محمد العيد عن الطمأنينة في ليلة لكن غياب الوحدة .السياسية و غياب الحرية و غياب العلم و عدم التمسك بالأخلاق الفاضلة ، كل ذلك قد سلب دفء الليل من الشاعر فغدا غريبا ضائعا في ليل زمهرير تتجاذبه مشاعر اليأس و الإحباط و الفشل ، لقد تحول إلى مواجهة عارمة تخنقه ، فكل ما في ليله مخلوقات مرعبة موحشة تقلقه ، و هذه بدورها تعكس حالة الغربة التي يعانيها : [2]

يَا لَيْلَ طَلَّتْ جَنَاحـًا ... مَتَى تُرِينِي الصَبَاحـَا
أَرَى الكَرَى صَدَّعَنِـي ... بِوَجْهِهِ وَ أَشَاحـَا
أَمْسَى عَلَـيَّ حَرَامًا ... مَا كَانَ مِنْـهُ مُبَاحـَا
قَدْ ضِقْتُ بِالهَمِ ذَرْعًا ... وَ مَا وَجَدْتُ اِنْشِرَاحـًا
مِلْتُ فِرَاشِي نَفْسِـي ... وَاسْتَوْحَشْتُ مِنْهُ سَاحـَا
كَأَنَنِي رَهْنُ سِجْـنِ ... لَمْ أَرِجْ مِنْهُ سَرَاحـَا
كَأَنَّ تَحْتِي شَوْكـًا ... يَشَوِّكْنِي أَوْرَمَاحـَا

و المشكلة في غربة محمد العيد تنحصر في المفارقة بين عهدين ، عهد مضى حيث محمّد العيد الشاب القوي المحاط بهالة من الإكبار و الإعزاز و عهد يعيشه ، و هو عهد جدب و إقفار يشاهد فيه لحظات سقوطه ، و لهذا تعاظمت محنته فبين العصريين تعيش نفسه في غربة تقلقها و تعذبها و القصيدة .رغم ذاتيتها .تتراوح بين عالمين ، عالم واقعي مريض يضّم الأحزاب المتصارعة و الشعب المستكين و الاستعمار المسيطر ، و عالم ذاتي خاص بالشاعر في خلوته و لو تأملنا قصيدة لأدركنا أن الشاعر بدأ ينزل من العالم الذاتي الخاص إلى عالم

[1]–الأدب و قيم الحياة المعاصرة ، د.محمد زكي العشماوي ، ط2 ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ' 1974،ص 440.

[2]–.-ديوان محمد العيد ، ص 45

الواقع يحاول إنقاذه ، غير أنه قد تعذب كثيرًا في نزوله فقد وقعت نفسه في أسر فهل يجد جوابا شافيا لهذا العناء : [1]

وَ قَدْ أَرَى الجِدَ أَجْدَى فَأَسْتَحِبُ الكِفتَاحَـا
وَ قَدْ أَرَى الصَبْرَ أَوْلَىَ فَأَطْمَئِنُ ارْتِيَاحًـا
وَ قَدْ بِهِمُ فـؤَادِي بِأَنْ يَطِيرَ جَنَاحـا
وَ قَدْ أَسَّرَ بُكَائِـي وَ قَدْ أَضُـجَ نَوَاحَـا
وَ لاَ يَقِرُ قـرَارِيْ إلاَّ إذَا الدِيكُ صَاحـا

لقد بدا محمد العيد بعيدًا بعواطفه و أفكاره و آلامه لا أحد يشاركه فيها ومن ثم أحس بغربة روحية تحتويه ، و بالأرق يصيبه ، و بالضمير يتألم و تتعاظم معاناته فيشعر بأنه سجين فكر معين مقيد العواطف فلا هو بقادر على الجهر بما في فكره و لا البوح بما في وجدانه ، و يحاول أن يشرك مواسيا له في غربته فلا يفلح ،فأصبح مصيره كمصير أولئك الشعراء العداة للإنسان حين يستخف أهل زمانهم بشعرهم :[2]

أَقْبَحُ بِآمَالِ نَفْسِـي وَ إِنْ تَبَدَّتْ مَلاَحـا
قَدْ أَوْثَقَتْنِي كِتَافَـا فَمَا اسْتَطَعْتُ بُرَاحَـا
كَتَمْتُهَا مُنذُ حِيـنٍ لَكِنِّ بِهَا ، الشِّعْرُ بَاحَا
إِنَّ الشُّعُورَ لَـدَاءٌ أَضَرَّ بِي وَ أَطَاحـا
مِنْ شُعُورَ بِشَـيْءٍ لَهُ نَجَا وَ اسْتِرَاحـا

إنّ القضية الأساسية التي تحدد أبعاد الغربة في هذه النصوص هي فساد الذمم و اختلال القيَّم ، و موقف الذات الشاعرة منها ، و لذلك بدأ هؤلاء بإدانة الناس ليصلوا في النهاية إلى الاصطدام بعبثية المسؤولين الذين يملكون باعا طويلاً في السياسية و يجيدون الكلام ، و من شأن هذا الفعل السياسي السلبي أن يؤثر في نفوس الشعراء الذين حاولوا أن يصلحوا فلم يفلحوا

[1]–ديوان محمد العيد ، ص 46.

[2]–المرجع السابق ، ص 46

فكانت الغربة عن الواقع السياسي لا أسفًا عليه أو تشفيا فيه ، بل حيرة و خوفا على مصالح الشعب الضائعة و شعورا بالآمال الخائبة يقول محمد العيد : [1]

يَالَيْلُ مَا فِيكَ نَجْـم جَلاَ الدُّجَى وَ أَزَاحَـا
إلاَّ كَوَاكِبٌ حَيْـرَى لَمْ تَتَضِحْ لِي اِتِضَاحَـا
بَطِيئَةٌ لَسْـتُ أَدْرِي بِهَا وَنَى أَمْ كِساحـا
تَحْكِي أَدْلاَءَ قَوْمِـي مَرْضَى تَسُوسُ صِحَاحَـا
مِنْ غَلْمَةٍ تَتَمَـارَى وَشَيْخَـةٍ تَتَلاَحَـى
وَدُّوا النِزَاعَ فَكَانُـوا مِثْلَ الكِبَاشِ نِطَاحَـا

و الأبيات تثبت أن الشاعر بدأ يزاول الرفض لمجموعة من الأعراف و أولها هذه المهاترات الحزبية التي تقودها كواكب جيرى و نجوم خابية مدركا أن « أية محاولة ترمي إلى جعل الشاعر يخدم قضيّة ما أو مصلحة ما من المحتمل أن تؤدي إلى سلب الشعر حريته التي لا يستطيع من دونها أن يصل إلى هذا الضرب من الحقيقة الذي يختص فالشعر لا يستطيع أن ينتمي إلى أي حزب من الأحزاب إلاّ حزب الحياة »[2]

[1]– ديوان محمد العيد ، ص 46–47

[2] الحياة و الشاعر ، ستيفن سبندر ، ترجمة : د.محمد مصطفى بدوي ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ص 160.

Fatakat.com

Fatakat.com

أولا : التعريف بمفدي زكرياء :

1-مولده و نسبه :

اسمه الحقيقي زكرياء بن سليمان بن يحي بن الشيخ الحاج سليمان ،ولقبه الشيخ أو أل الشيخ ، وعن جده الحاج سليمان هذا ورثت العائلة لقب أل الشيخ فقد كان احد شيوخ مدينة" بني يزقن" يترأس الاتحاد الميزابي أيام كان وادي ميزاب تربطه بالسلطة العثمانية المركزية معاهدة حماية ويتمتع في الباقي باستقلاله الذاتي.

ففي حضن هذه العائلة الماجدة ولد زكرياء في جمادى الأولى سنة1326 هـ الموافق لسنة 1908 م ، وفي مسقط رأسه بدأ خطواته التعليمية الأولى ، ادخله والده الكتاب حيث حفظ جزءا من القران الكريم ، ومبادئ اللغة العربية والفقه ، وعندما بلغ سن السابعة من عمره صحبه والد .معه إلى مدينة عنابة حيث كانت تجارته ، وفيها ثم حفظ كتاب الله ولم تنتظم دراسته في هذه المرحلة لأنه يتردد بين عنابة مسقط رأسه [1].

وكان هذا بالنسبة لمولده ونسبه ، أما بالنسبة لوفاته فانه بعد استقلال الجزائر امضي حياته في التنقل بين أقطار المغرب العربي وكان مستقره المغرب الأقصى ، وقبيل سنة 1977 رحل إلى تونس بعد أزمة بعد أداء فريضة الحج ، وتوفي بعد أزمة نفسية قلبية عن موطنه الأم بتونس يوم الأربعاء 03 رمضان 1397 هجري[2]،الموافق ليوم 17 أوت 1977ميلادي.

غير انه لم يكن وحيدا بل لازمه رفاق دربه الخلص ومنهم وزير الثقافة التونسي (الحبيب شيبوب) وصديقه المخلص زمن المحن(محمد قنانش)* وبعد وفاته نقل جثمانه إلى الجزائر ، ليدفن بمسقط رأسه " بني يزقن.

---

[1]- أفادنا بهذه المعلومات الأستاذ الشيخ بن ملال الحاج صالح في مراسلة سنة 1981.

*-محمد قنانش بإيجاز : هو من منضلي النجم ثم حزب الشعب و لا يزال على قيد الحياة .

[2]-يحي الشيخ صالح ،(م،س):ص :48.

2_الحياة الاجتماعية والثقافية التي نشأ فيها "مفدي زكرياء" :

إن شخصية " مفدي "_كما يحكى عنه أصدقاؤه الحميمون _ تمتاز بالتفتح والبساطة وعدم الانطواء والتعقد، فقد كان دمث الأخلاق ، سمح الطبع ، لطيف المحشر كثير الميل إلى التنكيت والدعابة ، دائم التبسم ، لاتفارق البسمة محياه حتى أحلك الظروف ، سريع الانسجام بالآخرين ، بحيث يخيل للذي يتعرف عليه أول مرة ويحادثه في أول لقاء أنه يعرف منذ أمد طويل، بعيد في علاقاته بالآخرين عن التصنع والتكلف ، كريم إلى حد التهور ، بمديد المساعدة لأصدقائه دون تحفظ. ومن جهة أخرى كان معتدا شخصيته في غير صلف ولا كبرياء يتشبث بآرائه التي يؤمن بها ، مما عرضه لكثير من المشكلات والمضايقات .

عاش مفدي زكرياء "متوسط الحال يمارس عدة مهن منها التجارة بأجره في المحلات في قسنطينة والجزائر العاصمة [1]،وهكذا عرف منذ مطلع شبابه مرارة الكدح في سبيل لقمة العيش ولقي في سبيلها الإرهاق و التعب ، فقد عمل أجيرا بسيطا ، وعمل ممثلا متجولا لمحلات تجارية لبيع القماش وغيره ، وتنقل في العاصمة بين دكاكين عدة فكان له في شارع "لالير"(بوزرينة) حاليا في بداية الثلاثينيات محلا للنيابة التجارية والإشهار التجاري لبيع العطور ، ما لبث أن تحول عنه إلى محل أخر في الشارع نفسه لبيع الحليب ومشتقاته ، ثم فتح في الأربعينيات محلا لبيع القماش سماه (دار السلام) في نهج (بوتان) سابقا ، انتقل بعد إلى محل آخر في نهج (بولوندون)، وأسهم في مشاريع تجارية أخرى كثيرة لم يكتب له النجاح والربح في اغلبها ، وهكذا يقاسي مقاساة شديدة في مشروعاته الاقتصادية فلم يكن له الحظ في تحقيق الثراء والرخاء اللذين كان يحلم بهما ويرغب أن تكون حياته قائمة عليها .

وفي أواخر سنة 1926م قرر "مفدي زكرياء " الزواج بطلب من والده وهو لم يتجاوز الثامنة عشر من عمره ، فخلف ولدا وبنتين وتخير لهما أسماء لها دلالات

[1]–يحي الشيخ صالح :ص:12.

ثورية واضحة فالابن " صلاح سليمان " والبنتان "عائشة استقلال " و"صالحة فداء "[1]

وفي السنة نفسها أطلق لقب "مفدي "على (زكرياء) وقد أطلقه عليه أستاذه (الحطاب بوشناق)[2] وذلك لأنه كان يرى فيه نجابة وذكاء وشاعرية ولطف إحساس ، وحلاوة معشر ولقد وجد "زكرياء" نفسه في هذا اللقب ما يُرضي طموحه الأدبي والوطني ، فاتخذه منذ ذلك اسما له فأصبح "مفدي زكرياء".

ومنذ عهد التلمذة بتونس بدأ "مفدي زكرياء " يكتب الشعر معتمدا في ذلك على مواهبه وميوله ،وجده واجتهاده كما يقول :«وأما الشعر فأنا فيه أستاذ نفي ، غير أني أعرض بضاعتي على أساتذتي رؤساء البعثة الميزابية ولقد قرأت الزحافات والعلل والدوائر على شاعر الخضراء العبقري (الشاذلي خزندار) ، ولي اطلاع شخصي على العروض والموازين ، ولقد شغفت حبا بالآداب طفلا وبتاريخ الأبطال من عظماء الأوطان »[3] ما من شك في أن السنوات الدراسية الخمسة التي قضاها بتونس مابين(1922-1926). هي التي كونته هذا التكوين الأصيل ، ووجهي حياته هذا التوجيه الأدبي والثقافي بعد ذلك . وقد تجمع هذا التكوين _ فيما يبدو لنا – ثلاثة عوامل :

***العامل الأول:** هو جو البعثة ،فان النشأة العربية الإسلامية الأصلية التي نشأ بها مشائخه قد تركت في نفسه أبعد الآثار ، ورسخت في أعماقه حب الإسلام والعربية والوطن ، وكره من يحاول المس بهذه المقدسات أيا كان لاسيما وأن أولئك المشايخ كانوا يقدمون النموذج العملي لتلامذتهم فقد كانوا جميعهم أعضاء مناضلين منخرطين في صفوف الحزب الحر الدستوري تحت زعامة الشيخ عبد العزيز الثعالبي .

ورغم سرية أعمالهم فانه لم يكن خافيا عن الفتى الذكي أن يدرك أبعاد ما يجري

1-البناء اللغوي لشعر السجون "عن مفدي زكرياء واحمد الصافي النجفي الطبعة 1،منشورات بونة للبحوث والدراسات 1429هـ/2008م(مقران فصيح) .ص:22

2-افادنا بهذه المعلومات الأستاذ الشيخ بزملال الحاج صالح في مراسلة سنة 1981.

3-ينظر ، شعراء الجزائر في العصر الحاضر ، ج 1، ص:151.

من حوله . وهو طالما شاهد الزعماء الكبار من أمثال الثعالبي ، والباروني ، والرياحي. يفدوه على دار البعثة ويستقبلهم الطلبة بحفاوة ويجلسون إليهم في محاضرات أو نوادي تدور كلها حول ترسيخ معاني الاعتزاز بالدين والشخصية والعمل على التحرير الوطني من أعدائه وعن هذا الأثر الذي تركته تلك الأجواء في نفسه يقول :« درست على هؤلاء دروس دينية ، وأفره في الوطنية والتضحية في سبيل الوطن العربي والأمة المجيدة »[1].

وكان "زكرياء " في هذه الأثناء يقرأ المجلات والصحف الواردة من المشرق العربي ويشترك هو وزميله"رمضان حمود " في مناقشة محتوياتها كما كان ،يشرف على مجلة أسماها «الوفاق»يتخذها الطلبة بالبعثة مجالا " للتباري والتنافس وتدريب الأقلام ، وبعث المواهب الشابة الصاعدة . وفي هذه المجلة ترك "مفدي " إنتاجا غزيرا شعرا ونشرا يمثل مرحلة الطفولة الأدبية أحسن تمثيل .ويبدو أن مؤلفا قيما ترك بصماته الواضحة في ذاكرة "مفدي زكرياء" وهو دراسة عن حياة "مصطفى كامل " وجهاده للاحتلال الانجليزي [2] فقد كان معجبا كثير الإعجاب بهذه الشخصية ، منكبا وزميله " رمضان حمود " على قراءة كل أجزاء الكتاب إلى جانب قراءتهما إنتاج "جبران خليل جبران " وشعر مدرسة الإحياء ولاسيما أميرها "أحمد شوقي " .

العامل الثاني :هو عمه الشيخ صالح بن يحي [3] والزعيم الثعالبي : أما عمه فهو يعد بحق أحد الأقطاب الثلاثة الذين أسسوا الحزب الحر الدستوري التونسي ، كما قدم الشيخ صالح " ما يملكه للخرب من المال وحماسة وتعاطفا ، واعتقل من اجل نشاطه الوطني مع زميله " عبد العزيز الثعالبي "و"محمد الرياحي"و هكذا نشأ،"زكرياء " في بيت عمه نشأة وطنية وثقافية منذ نعومة أظافره وتلقى مبادئها عن الزعيم الثعالبي الذي

[1]-شعراء الجزائر ، ج1، ص :151.
[2]-المؤلف تحت عنوان ، حياة مصطفى كامل في 43 ربيعا ، طبع القاهرة 1908.
[3]- مناضل كبير من رواد الوطنية توفي سنة ، للمدني ج1، ص :156.

كان لا يفارق بيته ، حتى أن" مفدي " ظل يحفظ توجيهاته ووصاياه وكـان يرددها في مناسبات عديدة من ذلك مقولة الثعالبي المشهورة : «كفانا أن نحتفظ من ماضينا بالدين والأخلاق، وما عداهما فالي الدمار إلى البوار»[1].

العامل الثالث : هو هذا الجو الوطني الحار الذي كانت تعيشه تونس في العشرينيات ولا سيما بعد الحرب العالمية الأولى ، فقد عُرفت هذه الفترة بطابع المجابهة بين القوة الوطنية والسلطات الاستعمارية واتخذت مظهر المظاهرات ، والإضرابات ، والكتابات الصحفية الحارة مطالبة بالحقوق أو تنديدا بالعسف والظلم وكانت تؤدي أحيانا إلى العنف[2] .

إضافة إلى هذه الأجواء الثقافية المتفتحة على الروافد الشرقية ،إذ من المعروف أن الرقابة على هذه الروافد في تونس كانت أقل استحكاما منها في الجزائر.

إن هذه العوامل المتجمعة تضافرت على نشأة الشاعر نشأة وطنية وثقافية وأثرت فيه تأثيرا قويا حين وجهته منذ يفاعته إلى هذه الوجهة التي تميز بها شعره ، ومن بعد إلى شعره منذ سنة 1925 م يلحظ كيف أن حياته الأدبية اتصلت اتصالا جذريا بنشاطه السياسي الوطني [3] .

وهكذا أظل في تونس يَعُب من جوها الثقافي ويستفيد علما وتجربة من جوها السياسي إلى أواخر سنة 1926م .

ثم نجد مفدي زكرياء في سنة 1933 م يؤسس بالعاصمة ،هو وجماعة من التجار «جمعية الوفاق» التي أصدره جريدة باسم (الحياة)[4]وأسندت إدارة تحريرها إلى"مفدي" "، وكانت الجريدة متعددة الاهتمامات فهي اجتماعية وسياسية واقتصادية وأدبية أيضا ولكنها لم تستمر طويلا إذ لم يصدر منها سوى ثلاثة أعداد ، وهي مع ذلك تعد وثيقة هامـة

[1]-ينظر شعراء الجزائر ،ج1، ص:151، أيضا جريدة الحياة الافتتاحية ، ع1،1933/4/1.
[2]-محمد ناصر .مفدي زكرياء . شاعر النضال والثورة ،ص:9.

[3]-تنظر قصيدته إلى الريفيين وهي تعد من بواكره . المصدر السابق .ص:131.
[4]-ينظر ،محمد ناصر . الصحف العربية الجزائرية .ص135.

لمعرفة اتجاهات مفدي واهتماماته في هذه المرحلة المبكّرة من حياته كما أنه لم يتخلّ قط عن الإنتاج الأدبي الذّي كان يشارك به في إثراء الحياة الثّقافيّة بواسطة الصّحف العربيّة و الأنديّة ، وكان في هذه المرحلة من المتحمّسين للحركة الإصلاحيّة يؤيّدها بشعره ومقالاته ويقف مناهضا لكل الحركات المضادة للاتجاهات الوطنية ، فكان يشارك في الحملات التّي عرفها بداية الثلاثينات ضد معارضي الحركة الإصلاحية . كما شارك في صحف إصلاحية مثل "المرصاد " وحين نشأت "المعيار" [1] ذات الاتجاه المعادي للإصلاح وهي معروفة بأسلوبها المتدنّي سبابا ، وثلب أعراض ، وانتهاك حرمات . استدعته طائفة من الشباب الإصلاحية .استدعته طائفة من الشباب الإصلاحي ليقف إلى جانبهم في الرد على حملات "المعيار" فكان "ديك الجن " وهذا هو لقبه الأدبي الذي كان يوقع به ذلك الإنتاج ، وعرفته جريدة «الجحيم» كاتبا مقدعا يثير الخصوم بقرصاته المؤلمة يقف في الواجهة الإصلاحية إلى جانب الكاتبين "العمودي "و "الزهري" المشهور بسخريتهما اللاذعة وأسلوبهما المدير ، وعلى الرغم من الموقف كان يستدعي ذلك الأسلوب الذي تفرضه المعركة الأدبية فإن "مفدي " كان يؤثر أن تتجه تلك الكتابات إلى ما يعود على الأمة وهي خطوات نهضتها الأولى إلى الدعوة إلى إرساء الأسس القوية التي تبنى عليها هذه النهضة ولا سيما في الميدان ، الاجتماعي و السياسي . كما جاء ذلك في رده لصاحب «المرصاد»حين دعاه إلى المشاركة بقلمه في الحملة ضد معارضي الحركة الإصلاحية.

«أني أفضل أن تولي وجهك نحو الأبحاث الحيوية الحقة ، وأن تستخدم مواهبك الطيبة في النهوض بأمتك إلى تأسيس النقابات التجارية ،إلى إنشاء النوادي الأدبية لربط صلات التعارف بين عائلة المشتقة هنا وهناك ...إلى مقاومة الأخطار الاجتماعية التي تهدد قوميتنا وديننا الإسلامي المجيد ....»[2] وهنا يحق للمرء أن يتساءل ما دام هذا هو موقف مفدي للحركة الإصلاحية ، فلم لم ينضم إلى جمعية العلماء ؟

إن مفدي لم ينضم إلى جمعية العلماء ، لا لأنه كان ضد أهدافها ، بل لأنه لم يكن مقتنعا بمنهج الجمعية المعتمد على سياسة مرنة في محاورة الاستعمار الفرنسي ، وهذا

[1]-المرصاد ،ع، 29، (1932/12/21).

[2]ينظر عنة هاتين الجريدتين ، الصحف العربية ص : 126 وص 133

الذي لم يكن يرضي طموح "مفدي" الوطني الذي كان لا يؤمن بغير المواجهة الصريحة و أخذ الحقوق على أنه وإن لم ينضم إلى جمعية العلماء فإنه كان معجبا شديد الإعجاب بأعمالها التربوية والدينية والثقافية . عبر عن هذا الإعجاب في مقالاته ومراسلاته ، وخلد أعمالها بقصائد.[1] وعلى الرغم من الجفوة التي عرفتها أحداث المؤتمر الإسلامي في سنة 1936–1937 بين العلماء وحزب الشعب [2]، فإن "مفدي" كان يكن للجمعية ورجالاتها التقدير والإجلال الكبيرين كما تدل على ذلك قصائده فيهم . لأن العلماء المسلمين الجزائريين على حد تعبيره «يتفقون مع حزب الشعب في الفكرة ، ويخالفونه في طرق التنفيذ».

عرف"مفدي" في الفترة مابين (1940–1955) حياة (الفلاكة) كما يسميّها هو بنفسه [3]وأختلط بالجو الفنّي ، فتعرّف بعميد المسرح الجزائري "محيي الدّين بشطارزي"والممثل القدير "محمد التوري". وانغمس إلى قمّة رأسه في أجواء الفن والطّرب وما يشيع فيها من لهو وسهو .وألّف في هذه الآونة العديد من الأغاني العاطفيّة ليغنّوها مطربون مشهورون في تلك المرحلة في كل من تونس والجزائر [4]وما يزال بعض هذه الأغاني متداولا محفوظا حتى اليوم. لقد كانت الاستقبالات الحافلة التّي تخصّصها البيئة الثّقافيّة التونسيّة ،وصحافتها المتفتّحة لمفدي زكرياء كلّما حلّ بين أشقائه هناك ، كان هذا الإحساس الوطني الفيّاض المتبادل بين الأشقاء على درب النضال المشترك . فكان كلّمـا حلّ

بتونس وجد الحفاوة البالغة والاستقبال الرائع ، وكان يتّخذ هذه المناسبات فرصة للتّعريف بالقضيّة الجزائريّة بالمحاضرات ، والنّدوات ، والشّعر ، وبالمقابلات المطوّلة في أعمدة صحافتها[5] .

وقد برز هذا التعاون الوثيق بين الشّاعر والصحافة التونسيّة أيّام تولّيه أمانة حزب الشعب ، إذ من المعلوم أنّه من الغايات التّي كان يسعى إليها حزب الشّعب وتأسيس وحدة

[1]-يمكن الرجوع إلى المقطع الخاص في الإلياذة عن جمعية العلماء ،واللهب المقدس في قصيدتين دار الطلبة ، والتحيات أبهذا الإمام .

[2]-بين أيدينا رسالة بخط يده ينوّه فيها بجهود الجمعية مؤرخة ب (1932/08/02).

[3]-ذكر ذلك في رسالة وجّهها إلى الشّيخ بيوض في نوفمبر 1970، ينظر الشعب الثّقافي ع.1972/07/04.

[4]-غنّى له عبد الحميد عزيز ، وحسيبة رشدي وفضيلة ختمي ، ولويزة التونسية وغيرهم .

[5]-انظر النّهضة ،ع406(1937/07/27).

شمال إفريقيا ، وتأسيس إمبراطوريّة عربيّة حرّة على ضفاف البحر الأبيض المتوسّط معتمدة على ثمانية عشر مليونا من العرب المسلمين ...[1]

من هنا نستطيع القول : إنّ تونس ببيتها الثّقافيّة الوطنية أ, بأحداثها السيّاسية ما بين الحربين العالميتين تعدّ من أقوى العوامل دفعا لاتجاه شعر مفدي زكرياء إلى هذا الاتجاه الوطني العارم ، والإيمان الثابت بمبدأ العمل الوطني الوحدوي لا من أجل الجزائر وحدها وإنّما من أجل مغرب عربي كبير.

أثاره:

ومفدي زكرياء ، غزير الإنتاج متنوّعة لم يبدع الشعر الفصيح فحسب وإنّما أبدع الشّعر الشّعبي أيضا وشعره الشعبي لايقلّ روعة وإبداعا عن شعره الفصيح ولا سيّما في قصائده العاطفية والثوريّة ، وإلى جانب الشّعر تنوّعت اهتماماته الأدبية والفكريّة وكتب المقال في مختلف ألوانه وأشكاله النّقديّ ، والاجتماعي، والسياسي ، وكتب التّمثيليّة والرّواية ، والقصّة وترك العديد من المحاضرات والأحاديث الصحفيّة والإذاعيّة ، وألف
البحث الأدبي والتاريخي ، وجمع القاموس والدّليل ، والمفكّرات .

ولعلّ السؤال الذّي يتبادر إلى الذّهن هو : إذن فأين كل هذا الإنتاج ولماذا لم ينشر ليستفيد منه القرّاء ويدرسه الدّارسون ويقيمّه الباحثون ؟.
يذكر مفدي زكرياء في مقابلة له مع الصحفي الأديب بلقا سم بن عبد اللّه في جويليّة من سنة 1972 [2] بأنّ له من الآثار الأدبية مايلي :

_تاريخ الأدب العربي عبر القرون .
_تاريخ الصّحافة الجزائرية .
_تاريخ الفولكلور الجزائري.
–أضواء على وادي ميزاب (دراسة تاريخية).
–نحو مجتمع أفضل.

[1]-الزهرة ،ع:9241 (1937/06/28).
[2]-الشعب الثقافي ،ع، (1972/08/04).

– سبع سنوات في سجون فرنسا .

– حوار المغرب العربي الكبير في معركة التّحرير .

– قاموس المغرب العربي الكبير(اللّهجات).

– العادات والتّقاليد في المغرب الموحّد.

– الثورة الكبرى (اوبريت).

– في العيد (رواية).

– عوائق انبعاث القصّة العربيّة .

– مئة يوم ويوم في المشرق العربي.

يحتوي على تسع وعشرين محاضرة بالكويت ،وقطر عن الثورة الجزائرية وتسع أمسيات شعريّة بمصر ولبنان .

–الجزائر بين الماضي والحاضر (محاضرة سياسية ألقيت بالمعهد الخلدوني بتونس في سنة 1936م.

مذ كرتي .

الصراع بين الشّعر الأصيل والشّعر الدّخيل .

أما الدّواوين الشعريّة فهي كالتالي :

1_ديوان اللّهب المقدس: طبع ثلاث طبعات الأولى سنة 1961م بالمكتب التجاري ببيروت والثانيّة ضمن منشورات وزارة التّعليم الأصلي والشؤون الدّينية بالجزائر سنة 1973 ،والثالثة سنة 1983 م قامت بها الشركة الوطنيّة للنشر والتوزيع بالجزائر .

2_تحت ضلال الزّيتون: طبع سنة 1965 بالمطبعة الرسميّة بتونس.

3_إلياذة الجزائر: طبعت سنة 1972 ضمن منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدّينيّة بالجزائر وهذه الطبعة حول 600 بيت فقط .ثّم نشرت كاملة في المجلّد الأوّل من محاضرات الملتقى السادس للفكر الإسلامي سنة 1972.

4_من وحي الأطلس [1]: طبع بالمغرب الأقصى سنة 1976 م ،بالإضافة إلى قصائد متفرقة في الجرائد والمجلاّت .

إنّ هذا الحشد الهائل من إنتاج الفكري المتنوّع لم يصلنا منه للأسف الشديد سوى دواوينه المطبوعة المعروفة ، اللّهب المقدّس ، تحت ظلال الزّيتون ، من وحي الأطلس ، إلياذة الجزائر ، أمّا باقي الأعمال الأخرى فإنها ما تزال متناثرة في الصّحف العربيّة أو في إذاعاتها ولا سيّما في أقطار المغرب العربي ، كان الشاعر يتمنّى أن يجمعها حسب تصّوره ويقدّمها للطّبع ولكن حياة التنقّل وعدم الاستقرار النّفسي و المّادي وما اكتنف حياته من مشاكل وصراعات [2]حالت دونه وتحقيق أمنيته الغالية تلك غير أنّ شعره الذّي 1925_1953م قد قام بجمعه أخيرا صاحب هذا البحث ونشره ضمن مؤلّفه عن مفدي زكرياء . والذّي يؤكدّ أنّ هذه الأعمال لم تزل في حاجة إلى جمع وتبويب وتصنيف ما جاء في المقابلة التّي أشرنا ليها سابقاً حيث يقول:«وأملى أن أطبع كل هذا الإنتاج متى تخلصت من مطاردة الفلاكة التّي تلازم كل أديب ومتى تيسّرت الإمكانيات الماديّة والزّمنية»، وعندما سأله الأديب الصحفي في مقابلة عن آخر مشاريعه الأدبية . أجاب :« ترتيب إنتاجي وتحقيقه وإعداده للطبع».

فإن هذه الأجوبة دليل قاطع على أنّ الشاعر لم يهيئ أعماله تلك للطّبع ولو أنّه انتهى من تأليفها وغلاً وذلك ما أكد ه لنا في مقابلة أجريناها معه بالدّار البيضاء في سنة 1947.

وذا حالت الظّروف دون أن يحقّق مفدي زكرياء تلك فإنّ أبناء الجزائر اليوم أساتذة وباحثين وطلاّبا سوف يحقّقونها بإذن الله ، وقد بدأت تباشير أعمال جامعيّة جادّة تحاول جميعها التّعريف بالشاعر وبإنتاجه ، وفي هذا بعض الوفاء لروحه ودليل من أدلّة التّواصل الحميم بين جيل الآباء المجاهدين وجيل الأبناء المشيّدين.

[1]-لم نعتمد هذا الدّيوان في دراستنا هذه لأن ما فيه من قصائد ليس من الشعر الثوري.
[2]-ذكر هذا في رسالة وجّهها إلى الشّيخ بيوض مؤرّخة ب:1970/11/17.

ثانيا:الأوضاع السياسيّة والاستعمارية وأثرها على حياة مفدي زكرياء:

واكب الحركة الوطنيّة بشعره ونضاله على مستوى المغرب العربي فانخرط في صفوف الشبيبة الدّستورية ،في فترة دراسته بتونس [1]، وفي إذ هيأ لمفدى جو البعثة العلميّة أن يحتك بشخصيات معروفة باتجاهات الوطني ، أمثال أبي اليقظان رئيس البعثة ، وأبي إسحاق اطفيش [2]، وعّمه الشّيخ صالح بن يحيي الذي يعد من المؤسّسين الأوائل للحزب الحر الدستوري التونسي[3] . وقد احتك مفدي زكرياء بعدد من التونسيين نذكر منهم الشيخ عبد العزيز الثعالبي مؤسس الحزب الحر الدستوري ، والوطني المشهور بمواقفه الشُجاعة ضدّ الاستعمار ، وكان للثعالبي علاقة وطيدة بهم مفدي الشيخ صالح ،حيث كانا يتزاوران ويجتمعان كثيرًا ! بمنزل هذا الأخير نتيجة لنشاطهما معا في الحزب المذكور ،وكان مفدي

يرى نشاطهما ويستمتع لأحاديثهما ومشاريعهما النضاليّة فيعيها ، وتركت في شخصيته أثرا قويّاً . بالإضافة إلى ذلك ما كانت تعيشه تونس آنذاك من نهضة في مجال الفكر

والصحافة. وهكذا تضافرت آثار كل من البيئة الضيّقة التي كان يحيا فيها مفدي ،و المتمثلة في مسؤولي البعثة ، والبيئة الواسعة المتمثلة في النشاط السياسي الوطني الذي كانت تعيشه تونس آنذاك تضافرت كل هذه الآثار في توجيه مفدي وجهة وطنيّة صحيحة ، وجعلته ينظر إلى مستقبل الجزائر والوطن العربي من خلال سبيل واحد ، هو التحرّر الكامل ورحيل الاستعمار ،نابذًا عن فكره كل الحلول الوسطية التّي تسعى إلى تحسين الظروف في ظل الاستعمار ، مهما يكن شكل ذلك الاستعمار ، ومهما يكن حظ الإسلام والعربيّة مزدهرًا في ظلّه ، فلا قيمة لأي ازدهار مالم يحصل التحرّر النهائي. وهذا الموقف التحرّري الذّي يستهدف التخلّص من نير الاستعمار قبل كل شيء هو الضوء الذّي : يمكن أن يفسر جميع مواقف مفدي زكرياء طوال حياته ، لأن مفدي ظلّ متشبثًا به واضعًا إياه نصب عينيه غير عابيء بتقلبات

[1]-أمجادنا تتكلم .مفدي زكرياء (شاعر الثورة الجزائرية) جمعه وحققه : مصطفى ابن الحاج بكير حمّودة .ص11.

2-انظر ترجمته في ص 74 . رسالة ماجستير بعنوان : شعر الثورة عند مفدي زكرياء. دراسة فنية تحليليّة –تأليف :يحي الشيخ صالح.

3-هو عم مفدي زكرياء ،قصد تونس للتعلم سنة 1917، وبعد الدراسة اشتغل فيها بالتجارة شارك في تأسيس الحزب الحر الدستوري التونسي.

الأجواء وتغيرات السياسة ، فالاستعمار هو الاستعمار ، وان تغيّرت مظاهره وأنظمة حكمه[1] وهذا الموقف هو الذي جعل من مفدي خطا متميزا في مسيرة السياسة الوطنيّة ،وصوتا متفردًا بين أصوات الشعراء الجزائريين ، وجعله في الوقت نفسه عرضةً للآلام والمعاناة والملاحقة والسجن .

وبناء على الموقف الذّي أسلفنا ، لم ينضم مفدي إلى جمعية العلماء لا لأنّه كان ضد أهدافها ،وإنّما لأن منهجها المعتمد على سياسة محاربة الاستعمار مع عدم التصادم معه وبخاصة في بداية مسيرتها ، و اقتصار نشاطها على الجانب الديني والثقافي ، لم يكن يرضى طموح مفدي الذي كان يرمي مباشرة وأولا ، إلى تحرير الجزائر من الاستعمار بأسلوب المواجهة الصريح .

لكن مفدي ، وان لم ينضم إلى جمعيّة العلماء فإنّه كان يبارك خطواتها ويخلّد

أعمالها بقصائد رائعة [2] ،معبرًا فيها عن نظرة وطنية لاتتقوقع حول الحزبيّة الضيّقة التّي طالما انقلبت إلى وسيلة لتشتيت الجهود وخدمة العدو المشترك . ولحسن حظ مفدي فقد وجد ضالته في حزب «نجم شمال إفريقيا » ذي المبدأ التحرّري الصريح ، ولحسن حظ هذا الحزب أن انضمّ إليه مفدي زكرياء فكان لسانه المعبر الفصيح ولا سيما أن هذا الحزب لم يستقطب الكثير من المثقفين ، بل إن أغلب

العمال والطبقات الشعبية البسيطة [3] ، وسرعان ما لمع نجم مفدي زكرياء في إطار «نجم شمال إفريقيا »ثمّ في إطار «حزب الشعب »، وتقلد فيه مسؤوليات شتى ، فكان أمينًا لهذا الأخير ، ورئيس تحرير جريدته «الشعب» ومن أعضاء إدارته ، وبالسرعة نفسها امتدّت إلى مفدي يد الاضطهاد

1-في سنة 1936 تسلمت زمام الحكم بفرنسا حكومة الجبهة الشعبية ،وغلق كثير من الجزائريين أمالا عريضة عليها ، لكن مفدي يعرف أن برامجها ومشاريعها ليست إلا وعودا كاذبة فيها جمعها في قصيدة أنظر القصيدة في الحركة الاستقلالية لمحمّد قنانش .ص134 وبعدها .

[2]-انظر مثلا قصيدة من« يشتري الخلد أنّ الله بائعة » وقصيدة « التحيات أبهذا الإمام » « اللّهب المقدّس»

2-المثقفون بالعربيّة ضمّت اغلبهم « جمعية العلماء المسلمين » والمثقفون بالفرنسية ضمّ أغلبهم حزب أحباب البيان والحزب الشيوعي ن وهذا ما جعل «النجم »و «الشعب »_إضافة إلى مبادئهما الصريحة في التحرر يوصفان بالغو غائية وعدم التبصر وبالطيش ...

الاستعماري فأودعته سجن بربروس [1] ،ليقضي فيه سنتين كاملتين من سنة 1937 حتى سنة 1939 غير أن مفدي _ وهو في إطار حزب معين .لم يكن حزبيا بالمعنى الضيق، فلم يشترك أبدًا في المهاترات التي كانت تنشب بين الأحزاب المختلفة ، ولم يتقيد بالحزب الذي ينتمي إليه [2] ، بل أنه لم يجبن عن أن يعلن موقفه بصراحة ضد أصدقائه المسؤولين في حزب الشعب عندما لاحظ في بعضهم ميلا إلى احتراف السياسة وتناسي الهدف ، وجمودًا على الكراسي بعيدًا عن مصلحة الشعب ، وذلك ما حدث غداة انقسام ذلك الحزب سنة 1953م، إذ جعل مفدي عليهم في قصيدة له ، بل انه لم يتردد في أن يسمّيهم ضفادع و أرذالا [3] . وفي هذا الاتجاه . وهو تقيد مفدي بالتحرر هدفًا أساسيا .نرى أنّ الشاعر

أحجم عن الاشتراك في أي نشاط لا يخدم ذلك الهدف ولا يصيب الاستعمار وخاصة المعارك القلمية الساخنة بين المثقفين من ذوي الاتجاهات المختلفة فقـد بلغت
يبعضهم حد كيل الشتائم واقتناص المساوي ومس الأعراض . فمفدى كان ينظر إلى تلك المعارك على أنّها لا تخدم إلا العدو والذي والاستعمار ، وتجعل الناس ينشغلون بها عن محاربته فتتوزع الجهود التي ينبغي أن توظف جميعا لمقاومة الاستعمار وتحرير الجزائر من رقبته والتي يجب أن تعمل متكاثفة بما فيه من خير للوطن .

ولعل أحسن مثال على الدكتور «محمد ناصر » من أن جريدة«المرصاد» كانت تنتقد مناهضي جمعية العلماء لمقالات لاتحتوي على زاد فكري أو مضمون ذي قيمته يذكر، اللهم سوى الثلب والتهكم والسخرية ...كما دعا صاحب الجريدة ديك الجن (مفدي زكرياء) ليشارك في هذه المعركة ، ولكنّه آثر أن تكون الكتابة في غير هذا الميدان، قائلا لمدير الجريدة : «إنّي أفضل أن تولي وجهك نحو الأبحاث الحيوية الحقة

---

[1]-سجن بربروس ، سجن رهيب أنشأه الاستعمار بالجزائر العاصمة ، حوّل بعد الاستقلال إلى متحف للجهاد.
[2]-يحي الشيخ صالح . شعر الثورة عند مفدي زكرياء . دراسة فنيّة تحليليّة .ص41 .
5-أنظر قصيدة «ألا أن ربك أوحى لها » «باللهب المقدس ، وتحليل بعض مقاطعها في فصل »«الطبيعة الثائرة ، من هذه الرسالة .».

، وأن تستخدم مواهبك الطيبة في النهوض بأمتك إلى تأسيس النقابات التجارية... إلى إنشاء النوادي الأدبية لربط صلات التعارف بين عائلة الأدباء المشتتة هنا وهناك ...إلى مقاومة الأخطار الاجتماعية التي تهدد قوميتنا وديننا الإسلامي المجيد .... »[1].إن تصفح الجرائد والمجلات العربية التي كانتا تصدر بالجزائر منذ العشرينيات يعطي صورة واضحة عن اتجاه مفدي السياسي والفكري وعن القضايا التي كانت تستحوذ على اهتمامه ، إذ أن كثيرا من الصحف عرفته كاتبا و ، شاعرا منه سنة 1925م ، بل إن جميع قصائده نشرت أول الأمر على صفحات الجرائد.

كما نذكر كذلك أنّه ترأس في سنة 1933م (مفدي) رئاسة تحرير جريدة «الحياة » التي أنشأها مع صديقه «أبي سعيد عدون » وكانت لا تمثّل أي اتجاه حزبي معين ، فقد ورد في منشور وزعه صاحب الجريدة على الأدباء والمفكرين قبل صدور العدد الأول

مايلي :«... الحياة ، وهي لسان حال المفكرين بشمال إفريقيا... » إن جريدتنا علمية أدبيّة اقتصادية أخلاقية جامعة ، أسست لتعمل على هدم كل شادته أيدي الجهل والتفريط والكسل ، وعلى إزالة كل ما يحول بين مسلمي هذه البلاد وبين رقيّها العلمي والأدبي والاقتصادي ، وهي ليست حبسا عنين ، أو متقيدة بحزب من الأحزاب ، إنما هي ملك مشاع بين جميع المتنورين الذين يحملون فكرتنا ويسعون مثلنا فيما يحي ما اندثر من مجد غابر ، مع إضافة ما يلزم أن يضاف إليه من محاسن العصر ، شعارها الإخلاص في العمل للّه ، والسعي لصالح الوطن ، رائدها الصدق، دعامتها التفكير الحر والعلم الصحيح ، حزبها الحق ، مبدؤها الصراحة ».[2]

وفي العدد الأول من «الحياة » ورد مقال توجيهي لمفدى زكرياء على شكل مقاطع تؤكّد على فكرة واحدة ، هي الحث على النهوض بالوطن وإخراجه ممّا فيه من تردّ وتقهقر: «نذل

1- د.محمد ناصر .الصحف العربية الجزائرية .ص120.121 وما وضع بين قوسين من كلام مفدي نفسه ،من مقال نشره«بالمرصاد».عدد 29تاريخ 32/12/21.

1-من منشور مطبوع ، يحمل توقيع أبي سعيد عدون مدير الجريدة ومفدي زكرياء رئيس تحريرها .

جبان ، ذلك الذي يتنمر في أوقات الرخاء ، و يستنسر في أيام الرفاء ثمّ هو يختفي في وقت أشد ماتكون فيه الأمة احتياجًا إلى من يضع لبنة في بناء مستقبل أبنائها...».[1]

وغداة اندلاع الثورة التحريرّية الكبرى انخرط مفدي زكرياء في أولى خلايا جبهة التحرير الوطنيّ بالجزائر العاصمة سنة 1954، وألقي عليه وعلى زملائه المشكّلين لهذه الخليّة القبض ، فأودعوا السّجن بعد محاكمتهم ، فبقي فيه لمدّة ثلاث سنوات من 1956/04/19م إلى 1959/02/01م .[2] فتنقل بين سجن البرواقية [3] ،وسجن « بربروس ».

ويروي عنه أصدقاؤه في السجن أمثال أحمد بوعلام [4] الذّي كان معه بسجن البرواقية ومحمّد زيتوني[5] الذي كان معه بزنزانة واحدة بسجن بربروس أنّه كان شديد الإيمان بانتصار الثورة ، غير مبال بحياة السجن وعذابه ، يفكّر كثيرًا في مرحلة الاستقلال

وبحلوله الحديث عنها . وكأنها واقع معيش . يركز في حديثه على أبناء الشهداء وأراملهم ، وما يجب على الثورة أن تقوم به تجاههم عند الاستقلال وفي سنة 1959 أفرج عن مفدي زكرياء ، ففّر إلى المغرب ، ومنها انتقل إلى تونس ليتلقى العلاج اللاّزم هناك لأنه خرج من السجن منهوك القوى ضعيف البنية نتيجة ملاقاة من تعذيب بصورة عامة ، و نتيجة حادثين أثرا فيه .بصورة خ

– حضوره ومشاهدته بعينية إعدام «أحمد زيانة » بالمقصلة في ساحة سجن بربروس بعد منتصف اللّيل.

– عملية التعذيب التي كان يمارسها ضدّه زبانية السجن باستمرار ، في «الكهرباء والثلج والجلد ، والصلب على الأشجار في العراء ، والتعريض لنهش الكلاب ن وتسليط الأضواء الكاشفة على العينين لمدة طويلة وغيرها » .[6] وبسبب هذا أصبح يشكو آلاما مبرحة في عينيه، وصداعًا شديدًا يلازمه ، وانهيارًا في أعصابه.

---

[1]-انظر د. محمّد ناصر.الصحف الجزائرية .ص138.

[2]-أمجادنا تتكلّم . مفدي زكرياء (شاعر الثورة الجزائرية) جمعه وحققه :مصطفى ابن الحاج بكسير حمّودة .ص11.

[3]-البرواقية مدينة تقع على بعد 130كلم جنوب الجزائر العاصمة وفيها السجن المذكور .

[4]-أحمد بوعلام من الفدائيين في الجزائر العاصمة إبان الثورة ، اعتقل وحكم عليه بلاعدام ، نجا من تنفيذه بأعجوبة .

[5]-محمد زيتوني من مناضلي ثورة 1954.

[6]- شاعر الثورة في مراحل حياته ،د.محمد ناصر ، مجلة الثقافة ، عدد 93 ، مايو 1986 /ص109.

وبتونس قام بعلاجه الطبيب الثوري الإفريقي فرانز فانون2 (FFanon ntzra) بمستشفى شارل نيكول حتى تعافى . في سنة 1961 حدث أحداث بالمغرب الأقصى أهمها وفاة محمد الخامس وتوليه الحسن الثاني ، فتوجه مفدي إلى المغرب وشارك في التظاهرات التي أقيمت بمناسبتين بسم الجزائر . وفي السنة نفسها انعقد بدمشق مهرجان للشعر العربي فأوفدت الثورة مفدي زكرياء يمثلها ، وشارك بقصيدة كانت بيانا فصيا للثورة ورسالة منها لك للأخوة الأشقاء بالمشرق العربي ، وفي أيام المهرجان حدث الانفصال بين مصر وسوريا (الجمهورية العربية المتحدة)، وبموجبه ثمّ رحيل المشاركين في المهرجان إلى لبنان وهناك انشغل مفدي الفرصة ، فسعى للطبع ديوانه «اللّهب المقدّس » ، واتفق مع شركة لبنانية على طبعه . وكان قد نزل بالقاهرة وهو في طريقه إلى دمشق وعند عودته من لبنان توجه إلى الكويت ، ومنها إلى قطر، ثمّ إلى القاهرة ، ثمّ انتقل منها إلى ليبيا ثمّ تونس .وقد يكون من المفيد أن نقف عند هذه الرحلات المكثفة التي قام بها مفدي زكرياء ، ودامت أربعة أشهر ونصف ننقل خلالها بين الدول العربية الشقيقة لنلقي الضوء عليها ، ونعرف الباعث عليها، والهدف منها .

لم تكن رحلات مفدي تلك لهدف الترفيه والاستجمام ، لكنها كانت عملية مليئة بالنشاط الثوري ، فقد كان لا يفتأ يعقد التداولات ويلقي المحاضرات وينشد من قصائده ، ويتحدث عن ثورة الجزائر في مهرجانات تعقد خصوصيا له ، وقد استقبله فيها الأشقاء بكل حفاوة وتكريم واحتلت نشاطاته الصفحات الأولى من مختلف الصحف ، وسُجلت له برامج إذاعية مطولة ، كلها حديث عن الجزائر وثورتها.

والحق أن مفدي نجح في مهمته تلك أهمها نجاح ، يتجلى ذلك في الدعوات الملحة التي انهالت عليه من مختلف الأقطار العربية تطلب منه زيارتها ، وأسماعها صوت الجزائر وثورتها . لنستمع إلى جريدة« الصباح » التونسية تتحدث من ذلك :

« بارحنا صديقنا شاعر الثورة الجزائرية الأستاذ مفدي زكرياء ، بارحنا منذ شهور للإسهام باسم الجزائر في مهرجان الشعر العربي المنعقد في دمشق ، حيث ألقى قصيدا ... ثمّ طفحت الصحافة السوريّة ، ومن قبلها المصرية .»

بأحاديثه الأدبية والسياسية حيث ألقى أضواء على ثورة الجزائر وكفاح شعب الجزائر لفتت الأسماع و الأنظار ثم انتقل إلى لبنان... فاستقبلته المحافل الأدبية والسياسية هناك بكل ترحاب وأفسحت له المجالات والصحف أعمدتها لتنشر أدبه وتعاليقه الأدبية ...وكانت المظاهرات التي نظمت بمناسبة ذكرى الثورة الجزائرية بلبنان هذه السنة آية في الروعة، وقد وشاركت في المظاهرات والتجمعات جميع الأحزاب اللبنانية ...وبينها هو في لبنان إذا بالدعوات تنهال عليه من دنيا العرب ترغب في زيارة أقطارها والاستماع إلى غريد عربي اللسان من الجزائر العربية المسلمة ، فاتصل بالدعوات من العراق والسعودية و الأردن والإمارات الخليج العربي والكويت ... فلبى دعوة إمارة قطر في الخليج العربي وهناك عقدت دائرة معارف قطر اجتماعا عاما قدمت فيه الشاعر الكبير الذي تحدث عن بطولات وكفاح الشعب العربي والجزائري . مما أهب حماس أشقائنا هنا لك وجعله يتسابقون إلى البذل و الإعانة إلى صناديق ، نصرة الجزائر ...ثم انتقل إلى الكويت تلبية لدعوة سمو الشيخ عبد الله الجابر الصباح وزير المعارف والعدل ، وكان الظرف يومئذ هو أسبوع الجزائر ، فقام شاعر عشرين برنامجا لإذاعة الكويت ، تم عقدت له مقابلة تلفزيون دامت نصف ساعة ... ومن الكويت انتقل الأستاذ زكرياء إلى القاهرة ومنها إلى ليبيا [1].

بعد هذا النشاط المكثف طوال أربعة أشهر ، قد لا يكون غريبا أن تعلق جريدة « الصباح » على ذلك بما يلي :

« مفدي زكرياء سفير الجزائر بدون أوراق اعتماد ...وهكذا لا تخلو أعمدة الصحافة سواء في دمشق أو القاهرة أو لبنان من شيء عن مفدي زكرياء و الجزائر أو شيء من مفدي عن الجزائر ، فأصبح بذلك سفيرا بدون أوراق اعتماد تخدم قضية بلاده ويبصر إخواننا في المشرق بما لا يعلمون عن الثورة الجزائرية وعروبة الجزائر »[2]

ثالثا : أثر السجن و المنفى في شخصية مفدي زكرياء :

[1] جريدة« الصباح » التونسية _ عدد : 2932 _ تاريخ : 1962/01/11

[2] المصدر نفسه _ عدد 2952- تاريخ : 1962/02/02

في 17 أغسطس _أوت_ 1937 حكم على الشاعر مفدي بالسجن بتهمة التآمر وهي تهم ملفقة عادة وعندما أطلق سراحه واصل نشاطه الفكري . وكان للبيئة الإسلامية الأصلية التي ترعرع وسطها ولمصادر ثقافته الدينية دور كبير في صقل شخصيته الشعرية وكانت مدينة غرداية مشهورة بأصالتها وحفاظها على القيم والمبادئ والعلوم العربية و الإسلامية . كما أن قسوة الاستعمار الفرنسي عليه و على شعبه أثّرت فيه إلى أبعد الحدود ... وعندما أتّم تعليمه غادر تونس عائدا إلى وطنه الجزائر ،وتوجه للعمل التجاري ولكنه لن ينقطع عن مجال الفكر والأدب ، وقد اشتهر سكان غرداية بالذكاء والنجاح في المجال التجاري ،. كان مفدي زكرياء واحدا من رواد الحركة الوطنية التي تبنت مبدأ الثورة على الاستعمار الفرنسي ، و أيدّ بقوة و أيد بقوة جمعية علماء المسلمين الجزائريين و لكنه لم ينخرط فيها رغم تكوينه الإسلامي و الديني ، بل اختار الانضمام إلى الحركات الوطنيّة .

وعندما اندلعت ثورة نوفمبر سنة 1954م وجد نفسه و تلقائيا واحدا من جنودها و الناطقين باسمها فسخّر شعره لخدمة القضيّة [1]الجزائرية و الدّفاع عن مظلومي الشعب الجزائري ، واتّخذ من شعره وسيلة لتعرية الاستعمار الفرنسي الذي حاق بالجزائريين سوء العذاب . وكان سباقا إلى رحاب الثورة الجزائرية وصادف ألوان العذاب والملاحقات و سجنه السلطات الاستعمارية الفرنسية خمس مرات .

كان مفدى وكرياء ضمير ثورة التحريرية الجزائرية الناطق والحي والرائد مسيرتها وكان المجاهدون الجزائريون يرددون أشعاره في ساحات المعارك وعلى أعواد المشانق إلى أن استقلت الجزائر في عام 1962م.[2]

كتب شاعر الثورة قصيدته "قسما " بالزنزانة رقم 69 في سجن بربروس سابقا(سركاجي حاليا) بالعاصمة الجزائر ،عندما كان مفدي معتقلا سنة 1956، أي سنتين فقط بعد اندلاع الثورة التحريرية المسلحة ، وقد كانت القصيدة بمثابة رسالة تحدّي لسجّانيه ، ولم يكن يدري يومها أن كلمات قصيدته ستتحول إلى نشيد وطني ، بلحن رائع للموسيقار المصري "محمد فوزي "، يحفظه

[1] http ://daifi .moutadarabi.com/t2087-lopic
[2] http ://egbat.google.com/ejobat/ thread ? tid =ob190fb2e34ceb61

الملايين عن ظهر قلب ، يدوي كل يوم في سماء الجزائر والعالم ، ويثير أكثر من ضجّة ، ومن المعلوم أن شاعرنا تعرض للسجن خمس مرات كاملة ، ابتداء من 1937م ، وقد نجح في الفرار من السجن سنة 1959م .

Fatakat.com

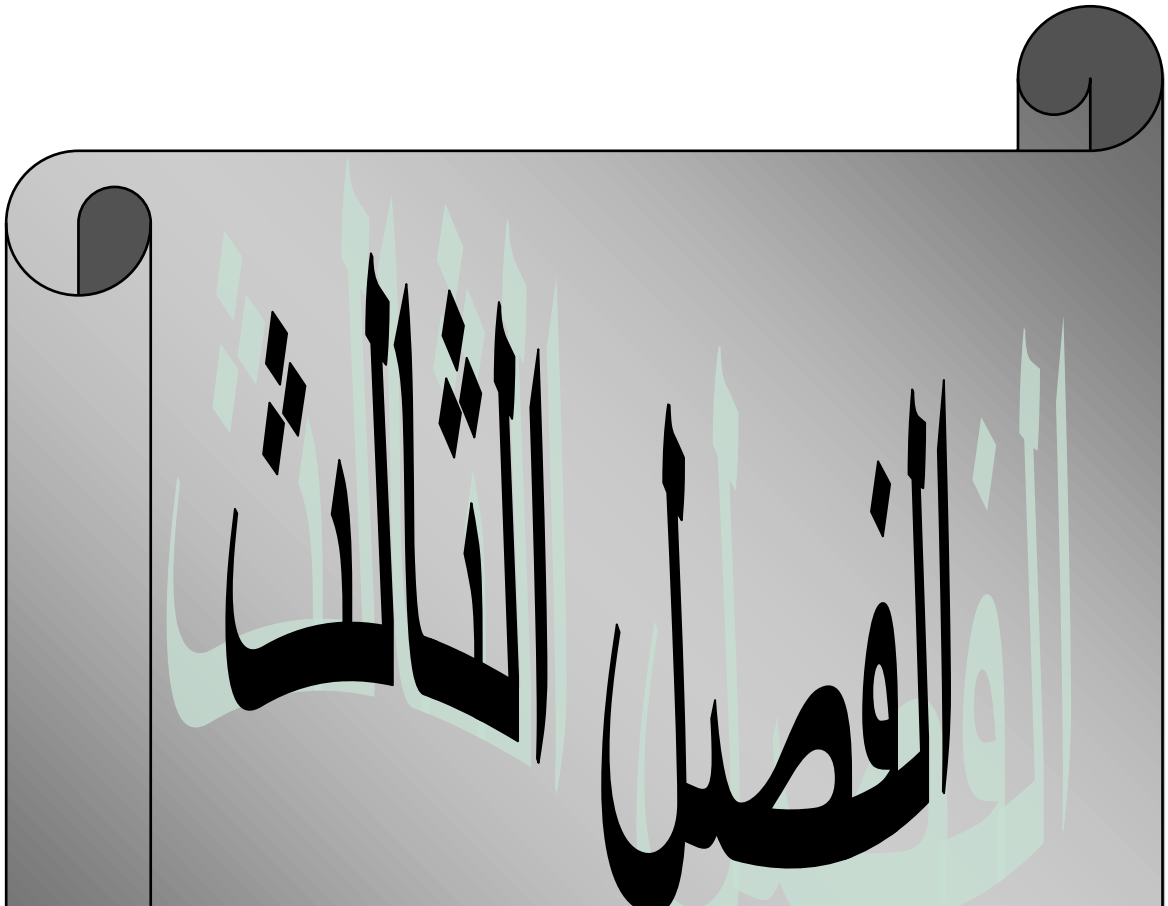

أولا : أثر الاستدمار في شاعرية مفدي زكريا :

إنّ الاستعمار في الجزائر لا يقاوم الثورة بالنار و السلاح فحسب ، ليخمد أنفاسها فمجابهة النّار و السلاح هو ثمن الحرية بكل بساطة ، و هو ما عرفته كل ثورات العالم على اختلاف في الدّرجة فحسب ، لكن الذّي يتميز به الاستعمار في حربه ضدّ الجزائر هو أنه ظهر بروح إجرامية تجعل المتتبع لأحداثها يعتقد جازما أن هدف الاستعمار من عمليات الاضطهاد و التقتيل ليس هو القمع فحسب ، بل إشباع غريزة شاذّة في الإجرام ، و بالتالي كوّن القتل و التنكيل هدفين في حدّ ذاتها ، لا مجرد وسيلة للقضاء على الثورة .

و قد أخذ الاستدمار مكانة كبيرة في شعر مفدي إذ كان يعبر باستمرار عن تدمّره من الاستعمار و من جرائمه على الشّعب الجزائري و التي لا تعد و لا تحصى ، و منه فإننا سنقدم بعض النماذج عن ذلك .

فَخَبِّرْنِي الدُنْيَا « نُفَمْبَرَ » أنّنا سَنَثْأَرُ لِلْشَّعْبِ الذِّي لَمْ يَزَلْ يَشْقَى[1]

و نجد الشّاعر في هذا البيت يتوعد الاستعمار ، و يعلن تصميم الثورة على الأخذ بالثأر ليس لمجرد المقاومة و القتل ، و إنما الثأر لكل جريمة من جرائم المستعمر على حدة و بعبارة أدق لكل نوع من أنواع الجرائم .

[1] - مفدي زكريا ، اللّهب المقدس ، ص : 200

Fatakat.com

كما نذكر قول الشاعر :

سَنَثْأَر لِلْبَيْتِ الذّي كَانَ آهِلاً فَضَجَتْ بِهِ الأَلْغَامُ تَسْحَقُهُ سَحْقًا[1]

نلاحظ من خلال قول الشاعر أنّ في صدره شحنة من القلق و الانفعال الكبيرين إزاء هذه الجرائم التي يرتكبها الاستعمار في حق الشعب الجزائري ، و منها تهديم البيوت الآهلة بسكانها بتفجير الألغام فيها .و يقول في موضع آخر :

سَنَثْأَرْ لِلْبِنْتِ التِي دِيسَ قَدْسُهَا وَ دَنَّسَ أَحَلاَسُ الخَنَاعِرْضَهَا الأَنْقَى[2]

يتوعد الشاعر في هذا البيت بالتأثر لشرف البنات القواصر اللّواتي قام جنود الاستعمار و مركز قوة بالاعتداء عليهن ، و تدنيس أعراضهن قهرًا و غَضبًا .

سَنَثْأَرْ لِلْطِفْلِ الرَّضِيعَ وَ قَدْ غَدَا وَ فِي فَمِهِ الرَّشَاشُ يَحْسِبُهُ رِزْقاَ[3]

يشير الشاعر إلى واحدة من أشنع جرائم الاستعمار و هي قتل الأطفال الصّغار عن طريق وضع فوهة الرشاش في أفواههم ، و إفراغ دخيرتها في أحشائهم .

وَ لِلْحِبْلِيَاتِ الحُورِ شُقَّتْ بُطُونَهَا .

و هو يعني بذلك كيفية قتل الاستعمـار للنساء الحوامل عن طريق شق بطونهنّ .

يقول الشاعر : وَ لِلْمُرْضِعَاتِ الغِيدِ أَثْدَاؤُهَا تُلْقَى .

حتّى النّساء المرضعات لم تسلمن من بطش الاستعمار فقد كان يقوم بقتلهن عن طريق بتر أثداثهن .

وَ لِلشَّيْخِ ثُؤْتَى زَوجُهُ وَ هُوَ مُوثَقٌ يَرَاهَا فَمَا يَسْتَطِيعُ دَفْعًا وَ لاَ نُطْقَا

و في هذا البيت يشرح الشاعر مدى اهانة الاستعمار الإنسان الجزائري بمسه في أعز ما يملك و هو شرفه ، و ذلك بربط سيّد العائلة إلى شجرة و هتك عرض زوجته و بناته على مرأى منه ، فلا يستطيع دفع البلاء .

سَنَثْأَرُ لِاكْوَاخِ وَ الدُّورَ وَ القُرى يُهَشِّمُهَا (النَابَالَمْ) يضحْرِقُهَا حَرْقًا .

---

[1] -مفدي زكريا ، اللّهب المقدس ص : 200.

[2] -المصدر نفسه : ص : 200.

[3] -المصدر نفسه :ص200.

يعبر فيه عن طريقة من طرق الإبادة الجماعية التي يمارسها الاستعمار ، و هي تدمير الأكواخ ، بل و القرى عن طريق إلقاء الزيوت الحارقة (النابالم) مشتعلة عليها ، فتحرق بمن فيها و ما فيها .

وَ لِلاَّمِنِينَ العَامِرِينَ بُيُوتُهُمْ يَسُوقُهُمْ لِلْمَوْتِ جَلاَّدُهُمْ سَوقًا[1]

يشير الشاعر إلى وحشية الاستعمار إذ كان يغتال الجزائريين العزّل بدون أي سبب ، فبينما يكونون في بيوتهم فإذا بزبانية الاستعمار يخرجونهم منها و يسوقونهم للإعدام ظلمًا و

جورًا. يقول مفدي زكريا :

وَفِي الجَزَائِرِ لِلْتَّنْكِيلِ مَدْرِسَةٌ[2] تُعَلِمُ الفَتْكَ بِالْشَعْبِ الشَّيَاطِينَا.

من قول الشاعر نستنتج أن لا يحتاج في الحقيقة إلاَّ أكثر من الحقد الشديد فما أسهل أن يعذب القويّ الضّعيف الذي في قبضته ، لكن هذا كان غير كافٍ بالنسبة للاستعمار في الجزائر ، فلكي يقوم جلاّدوه بمهمة التعذيب و التنكيل ، أنشأ لهم مدرسة خاصّة تعلّم شرطة أساليب التّنكيل و التعذيب ثمّ تعلم أيّ صناعة أخرى .

وَ فِي الجَزَائِرِ لِلْتَّمثِيلِ مَحْكَمَةٌ فِيهَا الفَظَائِعُ سَمُوهَا قَوَانِينَا[3].

يتحدث الشاعر هنا عن الاستعمار الذّي لا يكتفي بالتعذيب و التقتيل باسم القوة و قانون الغاب ، و إنّما ينشئ محاكم لتصدر أحكامها بالاضطهاد و التنكيل باسم القانون و العدالة .

يقول الشاعر :

وَفِي الجَزَائِرِ أَرَوَاحٌ مُقَدَسَةٌ هَلَّتْ مِنَ المَلاَ الأَعْلَى تُنَاجِينَا

يشير الشاعر هنا إلى أنه رغم كل الجرائم البشعة للاستعمار و كل القوانين التي أصدرها ضدّ الشعب الجزائري ظلما و تعسُّفًا ، فإنَّ بالجزائر أرواحًا مقدسّة تطلّ من الملا الأعلى تناجي من لا يزال على قيد الحياة و مناجاتها – طبعًا – تأكيد على الأحياء أن يبقوا على العهد و لا يستسلموا.

---

[1] -مفدي زكريا ن اللّهب المقدس ص : 201.

[2]) التي أسسها الاستعمار بسكيكدة بتاريخ : 11 ماي JEANNE D’ARC.1958 - هي مدرسة " جان دارك (

[3] -مفدي زكرياء .اللّهب المقدس : ص : 150.

*أَكْبَادُ مَنْ هَذِى التّي تَتَفَّطـرْ وَ دِمَاءُ مَنْ هَذِى التِّي تَتَقَطَّرْ

وَ قُلُوبُ مَنْ هَذِى التِّي أَنْفَاسُهَـا فَوقَ المَذَابِحِ لِلْسَّمَا تَتَعَثَّـرْ

وَرُؤُوسُ مَنْ تِلْكَ التِّي تَرْقَى إِلَـى حَبْلِ المَشَانِقِ طَلْقَةً تَتَبَخَثَـرْ

وَمَنْ الذِّي عَرَضَ الجَزَائِرِ شُبَهًا بِكُلِ شَاهِقَةِ لَظًّى تَتَسَعَّـرْ[1]

من خلال الأبيات السابقة نجد مفدي زكرياء يقدم السؤال تلو الآخر تعبيرا عن دهشته حول التعذيب و الاضطهاد ...ثمّ حول نقمة الجزائريين و ردود فعلهم ، و هـي الأخرى ممّا يعمّق المعاناة و يزيد الآلام حدّة.

*اجَهَنَمُ هَذِي التِي أَفْوَاهُهَـا بِكُلِ شَاهِقٍ لَظًّى تَتَسَعَّـرْ

أَمْ أَرْضُ رَبُكَ زُلْزِلَتْ زِلْزَالَهَا لَمَا طَغَى فِي أَرْضِهِ المُسْتَعْمِرْ

غَضَبُ الجَزَائِرْ ذَاكَ أَمْ أَحْرَارُ َهَا ذَكَرُوا الجِرَاحَ فَأَقْسَمُوا أَنْ يَثْأَرُوا

ما نلحظه في هذه الأبيات هو أن الشاعر يجيب عن تساؤلاته في الأبيات التي سبقتها ، فيجزم على أن كل ذلك تعبير عن نقمة تتفجر ضد الاستعمار ، و زلزال تقوم به الأرض احتجاجا على طغيان المستعمر فوقها .و في الأخير ، هو غضب الجزائر ، و انتفاضة أحرارها الذين آلوا على أنفسهم أن يثأروا للجراح.

و يقول الشاعر في مقطع آخر :

مَا دَهَاهُ وَيْلُ أُمِّهِ مَادَهَاهُ وَيْلَتَاهُ مِنْ جِيلِهِ وَيْلَتَـاهُ

مَالَهُ فِي الحَيَاةُ يُولَدُ أَعْمَى لَمْ تَرَ الكَوْنَ بَاسِمًا مُقْلَتَاهُ

َالَهُ مُقْعَدًا يُدَحْرِجُ رِجْلَيْهِ ، وَ مَاذَا جَنَى فَشِلَتْ يَدَاهُ

مَالَهُ لَمْ تَزَلْ تُهَدهِدُهُ الأُ مُّ وَلَمْ تَسْتَمِعْ لَهَا أُذُنَـاهُ

مَالَهُ أَخْرَسًا تُنَاجِيهِ فِي المَهْدِ ، وَلَمْ تَبْتَسِمْ لَهَا شَفَتَاهُ

[1]-مفدي زكرياء ، اللهب المقدس ، ص 150.

وَلِمَاذَا لَمْ يَبْكِ بَيْنَ ذِرَاعَيْهَا دَلاَلاً وَ لَمْ يَقُلْ أُمَّـاهُ

أَلِهَذَا الوُجُودِ جَاءَ وَحِيدًا أَمْ لَهُ فِي زَمَانِهِ أَشْبَـاهُ[1]

نجد مفدي زكرياء يصف في هذا المقطع سلسلة الآلام التّي تعرض إليها الجزائريين إبّان الثورة عندما قامت فرنسا سنة 1960م بتفجير قنبلة ذريّة بصحراء الجزائر فشوّهت الكثير ، و أهلكت الحرث و النّسل ، و إذا كان لذلك التّفجير أضراره الآنية التّي تدخل في نطاق التقتيل و التنكيل المسلّط آنذاك ، فإن لها أضرار أخرى لا تظهر في حينها تتمثل في تشويهها الأجنّة

الذّين لا يزالون في بطون أُمّهاتهم ، مما يطيل مدّة الآلام ، و يمدّ في عمر المعاناة لتمسّ أجيالاً أخرى فهذا الجنين سيولد مشوّهًا فاقدا بصره كسيحا مشلولاً ، فاقدا سمعه و نطقه ، و المصيبة الأدهى أنّه ليس وحيداً ، فيهون أمره ، بل له أشباهٌ كثيرون في جيله .

ثانيا : شعر الغربة و السّجون عند 55

إنّ مفدي زكرياء عندما يتناول شعر الغربة و السّجون ، فإنه في الغالب لا يخرج عن دائرة الحديث عن نفسه و معاناته الشخصية في السّجون ، خاصة سجن بربروس الرّهيب و الحقّ أن تجربته تلك مثل حي لمعاناة الوطنيين الجزائريين في هذا المجال . فيقول :

سَيّانَ عِنْدِي مَفْتُوحٌ وَمُنْغَلِـقٌ يَاسِجْنُ بَابُكَ أَمْ شُدَّتْ بِهِ الحَلْقُ.

أَمْ الّسيَاطُ بِهَا الجَلاَّدُ يُلْهِبُنِـي أَمْ خَازِنُ النَّارِ يَكوِينِي فَأَصْطَفِقُ

وَالحَوضُ حَوْضٌ وَإِنْ شَتَّى مَنَابِعَهُ أَلقَى إِلَى القُعْرِ أَمْ أَسْقَى فَأَنْشَرِقُ[2]

من خلال الألفاظ التي استعملها " مفدي " في هذا المقطع نلاحظ أنه يتخذ من السّجن خصم يقاومه و يتحداه ،ساخرا من وسائله الإرهابية ، و أنواع عذابه فلا فرق عند الشاعر بين أبواب سجن مفتوحة ، وبينها و هي موصدة ولا فرق بين السياط التّي تلهب جسمه ، الذّي يكوى به بيد "خزّان النّار . والحوض هو الحوض ، وإن تعدّدت منابعه ، فسواء ألقى الشاعر به إلى القعر ليختنق أم افرغ من مائه في جوفه لينشرق .

سِرِّي عَظِيمُ فَلاَ التَعْذِيبْ يَسْمَحُ لِي نُطْقًا ، وَرَبُّ ضِعَافٍ دُونَ ذَا نَطَقُوا

---

[1] -مفدي زكريا ، اللهب المقدس ص : 161-162.

[2] -مفدي زكرياء .اللّهب المقدس ص : 20.

إذ يتبيّن لنا من أنّ سريّة الشاعر كانت عظيمة ، فلا تنطقه وسائل التّعذيب مهما تنوّعت واختلفت ، كما نلاحظ أنّ هناك تركيز على قوّة تحمّل العذاب ، وحدّة التحدّي عند مفدي وذلك لا يوحي على خفّة التعذيب وبساطته وإنّما يدلّ على عكس ذلك تماما .

فهذه اللامبالاة لم يصل إليها الشّاعر إلا بعد تعرّضه المستمر للتّعذيب الشّديد وعشرته الطّويلة للاضطهاد[1] ، ممّا جعله يتحصّن ضدّ التعذيب بالتّعذيب نفسه ، فلم يعد يأثّر فيه ، إنّ التعذيب

أمات إحساسه الجسدي (وما لجرح بميّت إيلام) .

قال الشّاعر :

يَاسِجْنُ مَاأَنْتَ لاَ أَخْشَاكَ تَعْرِفُنِي ... كَمْ يَحْذِقُ البَحْرَ لاَ يُحْدِقُ بِهِ الغَرَقُ

إِنِّي بَلَوْتُكَ فِي ضِيْقٍ وَفِيْ سِعَةٍ ... وَذُقْتُ كَأْسَكَ لاَ هَمٌّ وَلاَّ حَنَـقٌ [2]

لقد شبّه هنا مفدي السّجن بالبحر الّذي حذّقه جيّدا , فأمن غرقه و أخطره فقد عاشره مدّة طويلة جعلته يألفه ، ولا يجد في صدره ضدّ ذلك السجن موجدة أو حنقا ، أنّه ذاق كأسه مرارا ومن يذق طعم أي كأس يتعوّد عليها .

يقول مفدي زكرياء:

وَلِمِصْرَ دَارٌ لِلْعُرُوبَةِ حُـرَّةً ... تَأْوِي الكِرَامُ وَتَسْنَدُ المُتَطَلّعَا

سَحَرَتْ رَوَائِعَهَا المَدَائِنُ عِنْدَمَا ... أَلقَى عَصَاهُ بِـهَا الكَلِيمُ فُرُوعَا

الَّنْيلُ فَتَحِ لِلْغَرِيبِ ذِرَاعَـهُ ... وَالشَّعبُ فَتَحَ لِلْشَقِيقِ الأَضْلُعَا

يَامِصْرَ يَاأُخْتَ الجَزَائِرِ فِي الهَوَى ... لَكَ فِي الجَزَائِرِ حُرْمَةٌ لَنْ تَقْطَعَا

هَذِي خَوَاطِرُ شَاعِرٍ غَنى بِهَا ... فِي الثَّوْرَةِ الكُبْرَى فَقَالَ وَ أَسْمَعَا

وَتَشَوُقَاتِ مِنْ حَبِيسٍ مُوثِـقٍ ... مَاأَنفَكَّ صَبَا بِالكِنَانَةِ مُولِعًا[3]

فالشاعر هنا يستغيث و يصرخ و لكن المستغاث به هي(مصر) التّي تعدّ مكانا آمنا محميا لكل مغترب عربي ، حيث أنَّ في استغاثته تظهر حقيقته فهو حبيس موثق ، و هو غريب

---

[1] عرف مفدي حياة السجون ابتداءا من سنة 1937 وانتهائها بسنة 1959 ، قضى في مجموعها 5.

[2] مفدي زكرياء اللهب المقدس . ص 21

[3] -مفدي زكرياء .اللّهب المقدّس ص: 105.

بين مجاهيل السجن ، و يحاول من خلال النداء الباكي أن يلفت الأنظار إلى هذه الذات التي تعاني جملة أسباب ضاعفت من غربتها أهمها : البعد عن الأهل ، و انقطاع الصّلة بينها و بين العالم الخارجي ، و انتظارها الإعدام ساعة بعد ساعة . و الاستغاثة نفسها أسلوب قديم اعتاده غرباء السجون فليس للرجال الأشداء في مثل هذه المواقف إلاَّ الاستغاثة و طلب النجدة.

قال الشاعر :

وَرَبُ نَجْوَى كَدُنْيَا الحُبِّ دَافِئَـةٍ ... قَدْ نَامَ عَنْهَا رَقِيبٍ لَيْسَ يَسْتَرِقِ

عَادَّتْ بِهَا الرُوحُ مِنْ سَلْوَى مُعَطَرَةٍ ... فَالْسِجْنُ مِنْ ذِكْرِي سَلْوَى كُلِّهِ عَبَقِ.

سَلْوَى أُنَادِيكِ سَلْوَى مِثْلَهُمُ خَطَـأْ ... لَوْ أَنَّهُمْ أَنْصَفُوا كَانَ اسْمكِ الرَّمْق

يَافِتْنَةُ الرُّوحِ هَلْ تَذْكُرِينَ فَتًـى ... مَا ضرَّهُ السِّجْنُ إلاَّ أَنَهُ وَمَـق

هَلْ تَذْكُرِينَ إِذًا مَا الحَظَ حَالَفَنَـا ... إِلَيْكِ أُهْتِفُ يَا سَلْوَى فَنَتَفِـقِ

أَمْ تَذْكُرِيْنَ وَ لَحْنَّ المَوْجِ يُطْرِبُنَا ... إِذْ نَفْرِشُ الرَّمْلَ فِي الشَّاطِئِ وَ نَعْتِقِ

وَ المَوجِ يَنْقُلُ فِي أَصْدَائِهِ قُبْـلاَ ... يُنَّدِي لَهَا الصَّخْرُ حَتَّى كَادَ يَنْفَلِق[1]

57

نلاحظ بأن الشاعر هنا قد انهار كيانه و هو في ظلمات السّجن، فالشاعر القوي الثائر يقف لحظة في بربروس ليسمع إلى دقات قلبه فيعزف لحنًا عاطفيًا يصوّره فيه شوقه و تلهفه إلى (سلوى) إنّه يناجيها مناجاة عذبة رقيقة من قعر الزنزانة رقم (73) في أبيات رائعة و لعلّ روعتها في عمق النغم الحزين و الألم المثير لا في التصوير البارع ذلك أنّه و إن تحرّر من واقع السجن إلى الخيال ، فلم يزحزح عن كاهله ثقل الأيام فلم يجد غير سلوى المحبوبة يرتد إليها و يمعن في الحنين و الشوق و يشكوها عن البعد و الغربة عنها .

ثالثا : خصائص شعر الغربة و السجون عند مفدي زكرياء :

1-اللغة :

[1] -مفدي زكريا .اللّهب المقدّس .ص 50.

للغة قيمة كبرى و دور خطير في الشعر ، لأنها أداته التي يكتسب بها وجوده فنا بين الفنون ، فإذا كانت الألوان أداة الرسم ، و الحجارة و المواد المجسمة أداة النحت...فإن اللغة هي أداة الشعر .

و المتمعن في مفدي يلاحظ بادئ ذي بدء أنه متأثر بالقرآن إلى حد بعيد ، فلغته يغلب عليها اللفظ القرآني ، كما أن القرآن مصدر للكثير من أفكاره و صوره فهو أيضا مصدر للكثير من ألفاظه و عباراته.

و في هذا المجال نتبين أن توظيف الشاعر اللفظ القرآني يختلف من موضع لآخر ، و

يمكن أن نميز نوعين من هذا التوظيف أو حالتين للتعامل مع اللفظ القرآني :

*/ توظيف المعنى و اللفظ معًا و مضمونه :

في هذه الحالة يستوحي الشاعر القرآن لرسم صورة أو التعبير عن فكرة ، لكنه لا يكتفي بذلك ، بل يعمد إلى الآية أو الآيات المستوحاة فيستعير بعض لفظها و يضمنه شعره ، و في هذه الحالة يكون أثر القرآن أوضح إذ أنه لم يقتصر على جانب المعنى ، و إنما تعداه إلى الجانب اللغوي باستعمال الألفاظ نفسها التي استعملها القرآن ، فكأنه يُريد أن يكون تأثيره بالقرآن أعمق ، أو أن يترْك دليلاً لفظيًا على استيحائه الفكرة القرآنية ، ففي حديثه عن الثورة بعد أن حققت إنتصارات كثيرة معنوية و عسكرية سنة 1957 يقول :

وَ الزَرْعُ أُخْرِجَ فِي الجَزَائِرْ شَطْأَهُ فَمَضَى وَهَبَّ إِلَى الحَصَادِ كِرَامٌ [1]

و هذا مأخوذ من الآية الكريمة : (كزرع أخرج شطأه فآزره...)[2] .

و عندما يتحدث عن جيل الثورة ، و عن نيرانه و رصاصه و رأيّه السديد يقول :

فَرَضْنَا ارَادَتَنَا الفَارِعَـهْ وَلَمْ تُخَبِ نِيرَانَنَا الدَالِعَـهْ

وَصُغنَا مَصَائِرَنَا بِالرَصَا صِ وَ بِالرَأْيِ وَ الحُجةِ القَاطِعَهْ

وَ تَمَتْ بِهَا كَلِمَات الإِلَّهُ التِي وَقَعَتْ باسْمِهَا الوَاقِعَهْ [3]

---

[1]-مفدي زكرياء ، اللهب المقدس ، ص : 44.

[2]-القرآن الكريم ، سورة الفتح ، الآية : 29.

[3]-مفديزكرياء ، الياذة الجزائر ، محاضرات الملتقى السادس للفكر الإسلامي ، ص : 91.

و هذه الأبيات مأخوذة من الأيتين الكريمتين : « و تمت كلمات ربك صدقًا و عدلاً »[1] و من الآية « إذا وقعت الواقعة ليس لوقعتها كاذبة »[2] .

ولعل من المفيد بعد هذه الجولة حول تأثر مفدي بالقرآن أن نشير إلى أن توظيفه اللفظ القرآني كان توظيفًا فنيًا ناجحًا .

إذا كان القرآن الكريم من مصادر اللغة عند مفدي فغنها عنده – بصورة عامة – تتصف بمميزات أهمها :

أ/الدقة :

فالشاعر يوظف لغته بدلالاتها المعجمية الدقيقة ، فكل لفظ مستعمل لاءداء مدلوله اللغوي الذي وُضع له ، و اللغة عند مفدي خ[illegible]ت[illegible]لعل السبب في دقة اللغة عند " مفدي " يعود إلى سعة المعجم اللغوي عنده ، بحيث يجد فيه اللفظ المعبر لكل ما يريد أن يتناوله بالحديث من تجارب و أفكار ، لأن الشاعر لا يستعمل لفظًا لغير معناه الدقيق إلا عندما يعوزه اللفظ الدقيق.

ب/الجرس الموسيقي:

من أهم مميزات اللفظة عند " مفدي " أنها ذات جرس موسيقي يتناسب و المضمون الذي تعبر عنه القصيدة ، و ظاهرة الجرس – و إن كانت ظاهرة أسلوبية في مظهرها العام لأنها تتحقق عن طريق التراكيب لا عن طريق الألفاظ فحسب إلا أن للفظة المجردة دورًا فيها بما تحمله – أي اللفظة – من جرس وصفات صوتية عن طريق حروفها –، « فالألفاظ تنقسم في الاستعمال إلى جزلة و رقيقة و لكل منهما موضع يحسن استعماله فيه ، فالجزل منها يستعمل في وصف مواقف الحروب و في قوارع التهديد و التخويف و أشباه ذلك ، و اما الرقيق منها فيستعمل في وصف الأشواق و ذكر البعاد نو في استجلاب المودات و ملاينات الاستعطاف»[3]

ج/القوة و الفخامة :

---

[1]-القرآن الكريم ، سورة الأنغام ، الآية : 116.

[2]-المصدر نفسه ، سورة الواقعة ، الأيتين :1-2

[3]-ابن الأثير ، المثل السّائر في أدب الكاتب و الشاعر ،ج1، ص 240.

إذا كانت اللفظة عند " مفدي " تحمل جرسًا قويًّا مجلجلاً من النّاحيّة الصوتية ، فإن هذه الصّفة نفسها تصدق عليها من ناحيّة المعنى فألفاظه بصورة عامّة فخمة قويّة ن لا تحمل إلاّ معاني القوة و الحدة من جميع وجوهها:

من صلابة و ثبات و شجاعة و بطولة في الألفاظ التّي تتناول الثّوار :

مَضَتْ كَالشُهُبِ وَانْحَدَرَتْ شَظَايَا تَلْهَبُ فِي دَجْنَتِهَا اِلْتِهَابَا[1]

وَثَبْنَا كَالكَوَاسِرِ وَاِتَخـذْنَا إِلَى اِسْتِقْلاَلِنَا الأَرْوَاحَ طُرُقَا[2]

و من وحشية و فظاظة في التّ[redacted]ستعمر و أعوانه :

وَ فِي الجَزَائِرِ لِلْتَقْتِيلِ مَدْرَسَةٌ تُعَلِمُ الفَتْكَ بِالشَعْبِ الشَيَاطِينَا

وَ فِي الجَزَائِرِ لِلْتَّمثِيلِ مَحْكَمَةً فِيهَا الفَظَائِعُ سَمُّوهَا قَوَانِينَا[3]

2-الأسلوب :

دراسة الأسلوب تقوم أساسا على ما للفظة من ميزات خاصة عند الشاعر و على النّظر إلى التراكيب و الجمل في بنائها ، أي طريقة استعمال الشاعر اللّغة بصفة عامّة .

لكنّ دراسة الأسلوب لا تولى اهتماما لكل الجوانب اللّغوية عند الشّاعر ، بل لما هو خاص به فحسب ،و يحمل شيئا من شخصيته ، باعتباره شاعرًا معيّنًا بذاته و إنسانا بعينه يختلف عن جميع الشّعراء و عن جميع النّاس ، فالأسلوب بهذا المعنى مثل نبرة الصّوت ، و طريقة الحديث ، ... لا يتماثل فيها إثنان و إن تشابها.

لذلك سنحاول أن ننظر إلى أسلوب مفدي نظرة شمولية لا تعنى بالتفاصيل التّي تقدم كل منها في موضوعه الخاص ، منطلقين من زاوية الاهتمام بما هو من سمات الشاعر الخاصّة و البارزة فيشعره ، أي ممّا يكون طابعًا خاصًا يميز شعر مفدي عن غيره فها هي سمات الأسلوب عند مفدي.

أ/ القوة والجزالة :

---

[1] -مفدي زكريا ن اللّهب المقدس ، ص 31.

[2] -المصدر نفسه ن ص 150.

[3] -مفدي زكرياء ، الّهب المقدس ، ص 31.

إنّ المقصود بالقّوة والجزالة هو قوّة الكلام ، أي قوّة التراكيب ، وإحكام بناء الجملة، فبناء الكلام عند مفدي محكم متماسك ن وفي الجملة ترابط وتلاحم بين الألفاظ ، يتجلّى ذلك في قصر الجملة عنده بصفة عامّة ، بحيث تقّدّم مضمونها واضحا ودون التواء ، لأنّ

إطالة الجملة كثيرًا ما تؤدّي إلى بلبلة وارتباك في ربط ألفاظها وفق علاقاتها النّحويّة (مثل إرجاع الصفات إلى موصوفاتها ، والأحوال إلى أصحابها ....) وهذا ما يؤدّي إلى
نوع من الارتباك في فهم الكلام فيجعل الأسلوب غير جزل ، لأن من صفات الجزالة الوضوح في غير ركاكة ، و العمق

وتأمّل هذه المقطوعة يثبت ما ذهبنا إليه من جزالة الألفاظ وقصر الجمل ، ووضوحها النّحوي والمعنويّ و المضموني:

أَنَا كَالأَطْلَسْ فِي مَنْعتِهِ لَمْ أَزَلْ أَصرُخُ فِي وَجهِ البَقَا
كَمْ بَلَوْتُ الدَّهْرَ فِي حَالاَتِهِ أَتَحَدَّاهْ شُمُوخًا وَ اَبَّا
فَانْحَنَى الدَّهْرُ أَمَامِي صَاغِرًا ضَارِعًا يَخْلَعُ أَثْوَابَ الرِّ يَا[1]

ب- الأصالة :

من مظاهر الأسلوب عند مفدي زكرياء أصالته وتغلغل الرّوح العربيّة فيه ، فهو أسلوب عربي قح لا أثر فيه لثقافة أجنبية ما ، ولا اللّهجات العربيّة العامّة ، فالألفاظ فيه عربيّة والتراكيب كذلك ، كلاهما بعيد عن التأثّر بالعاميّة أو روحها أو نبضها على الأقل ، الشيء الذي نجده عند كثير من الشعراء المعاصرين له نسب متفاوتة وكل ما نجده في هذا المجال عند مفدي زكرياء هو ألفاظ نادرة جداً من العاميّة .

ولعل تعلق الشاعر بجماهير الثورة رغبةً في الغوص في أعماقها والتعبير عنها بواقعية يبدو أوضح في إقدامه على وضع نشيد كامل باللّهجة العربيّة العاميّة هو نشيد " جيش التحرير الوطني " ، لكن مفدي زكرياء وإن فعل ذلك فإن عربيته القُحْ كانت له بالمرصاد ،

[1] -مفدي زكرياء، اللّهب المقدس،ص166 – 167 .

يرتح كل الارتياح للتّعبير بالعاميّة بدل الفصحى ، ولذلك صدر ن شيده بالتّعليق التالي :« نظمه الشاعر بسجن البرواقيةّ بلغة شعبيّة جزائريّة قريبة من الفصحى [1] »

ولا يقتصر تحرّي الأسلوب العربي الأصيل عند مفدي على ابتعاده عن الألفـاظ العاميّة

والأجنبيّة فحسب ،بل يتجاوز ه إلى ابتعاده حتّى عن العبارات العربيّة الفصيحة في لغتها ، النثريّة في استعمالها ، فهو لايميل إليها ، ولا نجدها إلا نادراً في شعره ، وإذا وجدت فإنّها تحمل طاقة تعبيريّة تخفّف من نثريتها وذلك ما يغري الشاعر بها ، غير أنّه – مع ذلك – يضعها بين قوسين للإشارة أنّها جسم القصيدة أو البيت .

ج– شيوع الأسماء والأعلام :

هناك ظاهرة بارزة في شعر مفدي زكرياء يمكن أن تتخذ شكل صفة أسلوبيّة لتجلّيها عنده بشكل واضح وفريد ، هي كثرة توارد الأعلام و الأسماء فيه ، من أسماء ساحات وجبال ومدن وقرى ، وأنهار ووديان وثوّار وشهداء ، وحتّى أسماء الأعداء وتستولي أسماء الأماكن التّي لها يد في الثّورة بشكل أو بآخر ، على حصّة الأسد في الورود ، من ساحات دارت فيها رحى المعارك ، وجبال لاذ الثّوار بمغاورها ، واتخذوا من ذراها منطلقا لزحفهم على العدو ...و ليس ذلك بغريب في شعر ثورة اتخذت من الجبال مراتع لنشاطاتها ، ولذلك فإنّ ظاهرة شيوع العلام تبدو أكثر وضوحاً في القصائد التّي تتناول الثورة في جانبها الحربي أو المعركي . فأسماء الجبال نلحظها في قوله مثلاً:

هذِيُ الجِبَالِ الشَامِخَاتِ شَوَاهِدُ سَخّرْتُ بَيْنَ مَسْخِ الحَقَائِقِ وَادَّعَى[2]

سَلَ (جُرْجُرَةَ)* تُنْبِئُكَ عَنْ غَضَبَاتِهَا وَاسْتَفْتْ (شِيْلِيَا) لَحْظَةَ (الشَلْعَلَعَا)**

وَاخْشَعْ (وَارْشِنِيسْ)أَنَّ تُرَابَهَا مَا انْفَكَ لِلْجُنْدِي المُعَطّرِ مَصْرَعًا [3]

ومن أسماء الأشخاص في قوله:

ذَرُوا الأَحْلاَمَ و اطْرَحُوا ، الأَمَانِيَ كَفَى يَا نَاسُ جَهْلاً وَاغْتِرَارَا

---

[1] -مفدي زكرياء ، اللّهب المقدّس ، ص79 .

[2] - مفدي زكرياء ، اللّهب المقدّس ، ص 65 .

*-سلسلة جبال ببلاد القبائل

**-جبل بالأوراس سجل معارك كثيرة

[3] -المصدر نفسه ن ص 154 – 155 .

فَلاَ (مَاسُو) وَلاَ (سُوسْتِيلْ) يُجْـدِي إِذَا حَـفَ البَـلاَءُ بِكُمْ وَدَارَا

فذكر مفدي زكرياء لأسماء الأشخاص الذَّين لعبوا دوراً في الثورة سلبا وإيجابا بأسمائهم أيضاً يجعل القصيدة أكثر توغّلاً في حقيقة الأحداث ، وأشدّ مساسًا بـالواقع.

وبالتالي أكثر واقعيّة ، وهذه الظّاهرة تبدو أكثر قيمة عندما نتذكرّ أنّ الثورة بثبات مبدئها ووسائلها وهدفها ، وعدم تعرّضها للتّغيير والتَّبديل .

فهذه الأحداث المستجدّة على الصّعيد الوطني والعالمي هي التّي تقدّم للشّعر مادّة ثريّة ، وتمنح له منبعًا لا ينبض معينه من الإلهام ، وتحريّ الدقة في تناول الأحداث والتّركيز على جزيئاتها بلمحاتها بلمحات معبّرة ذكيّة هي استغلال لذلك المنبع ، وهو ما يعطي الشّعر جدّة وطرافة ، وذلك ما تحقّق عند مفدي.

وهكذا يتجلّى لنا أسلوب مفدي زكرياء جزلاً فخِماً ، عربيًّا صميمًا في ألفاظه وفي روحه يميل إلى التدقيق ، وهذا كلّه يتدخّل بطريقة غير مباشرة في بلورة أفكار الشاعر وواقعيتها.

فأسلوب الشاعر واضح وقوي فهو في تفكيره وشعوره يعتزّ بالقوميّة العربيّة ويقدّمها إلى أبعد الحدود، والشاعر في شخصيته واضح فآرائه تتّسم بالوضوح والقوّة.

ثمَّ إنَّ أسلوبه خفيف بسيط ويشعر قارئه باقترابه من نفسه ، وذلك شخصيّة الشاعر، فهو خفيف الرّوح ، حاضر البديهة يملك نفس محدثه، فيأسُرُهُ ويودّ أن لا يفارقه أبدًا.

رابعا: نماذج عن شعر الغربة والسجون عن مفدي زكرياء:

إذا أردنا الحديث عن القصائد التي قالها "مفدي زكرياء"في سجنه فإنها لاتعد ولاتحصى وبالتالي فقد اخترنا بعض النماذج لنذكر مقاطع منها، وهي:

"الذبيح الصاعد[1]"(بحر الخفيف)

قَامَ يَخْتَـالُ كَالمَسِيحَ وَئِيـدًا يَتَهَادَى نَشْـوَانُ، يَتْلُو النَشِيـدَا

بَاسَمْ الثَّغْرُ كَالمَلاَئِـكِ أَوْ كَالطِفْلِ يَسْتَقْبِلُ الصَبَاحَ الجَدِيـدَا

[1] -ويقصد الشاعر بالذبيح الشهيد"أحمد زبانا"

شَامِخًا أَنْفُهُ جَـلاَلاَ وَتِيهَا رَافِعًا رَأْسَهُ يُنَاجِي الخُلُودَا

رَاخَلاَفِي خَلاَخِلُ زَغْرَدَتْ تَمْـلأُ مَنْ لَحَنَهَا الفَضَاءُ البَعِيـدَا
حَالَمَا كَالْكَلِيمِ كَلَمَهُ المَجْدُ فَشَدَّ الحِبَـالَ يَبْغِـي الصُعُودَا
وَتَسَامَى كَالرُوحِ فِي لَيْلَةِ القَدْرِ فِي اللَّيْلِ عِيدَا
وامْتَطَى مَذْبَحُ البُطُولَةِ مِعْرَاجًا وَوَافِى السَّمَاءُ يَرْجُوالمَزِيدَا
وتَعَالَى مِثْلُ المُؤَذِنُ يَتْلُو كَلِمَاتُ الهُدَى وَيَدْعُو الرُقُودَا
صَرْخَةٌ تَرْجِفُ العَوَالِمُ مِنْهَا وَنِدَاءُ مَضَى يَهُزُ الوُجُودَا
اشْنِقُونِي فَلَسْتُ أَخْشَى حِبَـالاَ وَاْصْلُبُونِـي فَلَسْتُ أَخْشَى حَدِيدَا
وَامْتَثِلِ سَافِرًا مَجّبَاكَ جَلاّ دِي وَلاَتَلْتَثِم فَلَسْتُ حقُودَا
وَاْقْضِ يَامَوتُ فِي مَـا أَنْتَ قَاضِ أَنَّا رَاضٍ إِنْ عَاشَ شَعْبِـي سَعِيدَا
أَنَا إِنْ مِتُ فَالـجَزَائِرُ تَحْيَا حُرَّةً مُسْتَقِلَةُ لَنْ تَبِـيدَا
قَوْلَـةُ رَدَّدَ الزَمَانُ صَدَاهَا قُدُسِيًافَأَحْسَنَ التَرْدِيدَا
اْحْفَظُوهَا زَكِيَّةٌ كَالمَثَانِي وَانْقُلُـوهَا لِلْجِيلِ ذِكْرًا مَجِيدَا

لقد كانت هذه بعض الأبيات من قصيدة "الذبيح الصاعد" وما يقصده الشاعر بالذبيح هو الشهيد "أحمد زبانا"، الذي كان أول معدم في الثورة الجزائرية ، وقد أعدمه الاستعمار بأبشع الطرق وهي قطع رأسه بالمقصلة في سجن "بربروس" ، وكان الشاعر "مفدي" شاهدًا على عملية الإعدام ، فقام بنظم القصيدة ليلا في 18 جويلية 1955 .

وقال الله (بحر وافر)

دَعَا التَارِيخُ لَيْلَكْ فَاسْتَجَابَا (نُفَمْبَرُ) هَلْ وَفَيْتِ لَنَا النَّصَايَـا
وَهَلْ سَمِعَ المُجِيبُ نِدَاءَ شَعْبِـي فَكَانَتْ لَيلَةَ القَدْرِ الجَوَابَـا
تَبَارَكَ لَيْلَكَ المَيْمُونُ نَجْمَا وَجَلْ جَـلاَلَـهُ هَتْكَ الحِجَابَـا
زَكَـتْ وَثَبَـاتُهُ عَنْ أَلْفَ شَهْرِ قَضَاهَا الشَعْبَ يَلْتَحِقُ السّرَابَـا
وَهَزَتْ ثَوْرَةُ التَحْرِيرِ شَعْبَا فَهَبْ الشَعْبَ يَنْصَبُ اِنْصِبَـابَا

وَلَعْلَعَ مِنْ شَلَعْلَعِ [1] ذَوَيْبَانَ فَأَنْطِقْ فَوْقَ جُرْجُرَةَ الجَعَابا

وَشِبْتُ مِنْ ذُرَى (وَهْرَانَ)نَارَّ [2] فَاسْتَجَابَا

وَقَالَ اللهُ كُنْ يَاشَعْبُ حَرْبًا عَلَى مَنْ ظَلَ لايَرْعَى جَنَابَا

وَقَالَ الشَعْبُ كُنْ يَارَبُ عَوْنًا عَلَى مَنْ بَاتَ لاَيَخْشَى عِقَابَا

فَكَانَ مَا كَانَ مَنْ شَعْبٍ ،وَرَبٍّ قَرَارَ أَحْدَثْ العَجَبِ العَجَابَا.

نظم "مفدي زكرياء " القصيدة السابقة في سجن البرواقية ، بتاريخ 1نوفمبر 1957 وذلك بمناسبة الذكرى الثالثة للثورة الجزائرية المجيدة.

وتعطلت لغة الكلام (بحر الكامل)

نَطَقَ الرَصَاصُ فَمَا يُبَاحُ كَلاَمُ وَجَرَى القِصَّاصُ فَمَا يُتَاحُ مَلاَمُ

السَّيْفُ أَصْدَقُ لَهْجَةٌ مِنَ أَحْرُفِ كُتِبَتْ فَكَانَ بَيَانُهَا الإِبْهَامُ

وَالنَّارُ أَصْدَقُ حُجَةً فَأَكْتُبِ بِهَا مَاشِئْتُ، تَصْعَقُ عِنْدَهَا الأَحْلاَمُ

يَاثَوْرَةُ التَحْرِيرِأَنْتَ رِسَالَةٌ أَزَلِيَةٌ ، إِعْجَازُهَا.الإِلْهَامُ

لَكِ فِي الجَزَائِرِ حُرْمَةٌ قَدَسِيَةٌ وَبِكُلِ قَلْبٍ فِي الوُجُودِ هَيَّامُ

الشَّعْبُ أَنْتَ ضَمِيرُهُ ، وَصَوَابَهُ وَالجَيْشُ، أَنْتَ دِمَاغُهُ العَلاَمُ

زَعَمَتْ فَرَنسَا فِي المَعَاقِلِ ضَلِّهِ مِلْكُ الجَزَائِرِ...وَالحَنُونُ غَرَامُ

كَاللِّصِ يَسْتَرِقُ المَتَاعُ وَيَدَعِي مِلْكًا.... أَيَسْمَعُ لِلْصُوصِ كَلاَمُ؟

يَامَعْشَرَ المُسْتَعْمِرِينَ تَرَبَصُوا وَدَعُوا المَطَابِعَ فَالسَحَابُ جِهَامُ

فَكَمْ نَزَلْتُمْ، رَاحِلُونَ...وَهَكَذَا حَقُ الزُّوَالِ. إِذْ يُقَالُ (تَمَامُ)

هَذِيْ تَحِيَةِ شَاعِرٍ يَسْمُو بِهِ فِي دَوْلَةِ الأَدَبِ الرَفِيعِ نِظَامُ

وَرِسَالَةُ صَاغَ الشَّهِيدُ بَيَانَهَا وَزَكَا بِهَا فِيْ الخَالِدِينَ (عَمَامُ)

---

[1] -شلعلع:جبل من جبال الأوراس.

[2] -برج مدين: رمز لمدينة تلمسان ،وهو موطن الشيخ أبي مدين شعيب.

لقد أخذت هذه الأبيات من قصيدة وتعطلت لغة الكلام" كما ذكرنا سابقا، وقد نظمها الشاعر في سجن "بربروس"وهو في الزنزانة رقم(09) في فيفري 1957 وذلك بمناسبة خذلان منظم الأمم المتحدة لقضية الجزائر في دورتها الثالثة عشر.

بنت الجزائر(ملحمة السّجن)(البسيط).

سَيَانْ عِنْدِي مَفْتُوحْ وَمَغْلُـقْ ... يَاسِجْنُ بَابَكْ أُمُ شُدَتْ بِهِ الحَلْـقِ

أُمُ السِيَـاطِ بِهَا الجَلاَدُ يُلْهِبُنِـي ... أُمُ خَازِنُ النَّارِ[1] ،يَكُوبُنِي فَأَصْطَفِـقُ

وَالحَوْضَ حَوْضُ وَإِنْ شَتَى مُنَابِعُـهُ ... أُلْقِيَ إِلَى القَعْرِ، أَمْ أُسْقِيَ فَأَنْشَرَقَ.

سِرِي عَظِيمُ فَلاَ التَعْذِيبُ يُسْمَــعُ ... لِي نُطْقًا وَرَبُ ضِعَافِ دُونَ ذَا انْطِقُوا

يَاسَجَتْ ، مَا أَنْتَ ؟ لاَ أَخْشَاكَ تَعْـرِفُنِي ... مَنْ يُحَذِقُ البَحْرَ لاَيُحَذِقُ بِهِ الغَرَقَ

إِنِي بَلَوْتُكَ فِي ضَيْقٍ وَفِي سِعَــةِ ... وَذُقْتُ كَأْسَكَ ، لاَ حِقْدَ وَلاَ حَـنَقَ

أَنَامِ مِلْءُ عُيُونِي غِبْطَــةٌ وَرِضَى ... عَلَى صَيَاصِيكَ لاَ هَمُ وَلاَ قَلَـقَ

طَوْعَ الكَرَى ، وَ أَنَاشِيدُ تُهْـدِهِدُنِي ... وَظُلْمَةُ اللَيْلِ تُغْرِينِي فَأَنْطَلِـقَ

وَالرُوْعُ تَهْزُأُ بِالسَجَانِ سَاخِــرَةِ ... هَيْهَاتْ يُدْرِكُهَا ، أَيَانَ تَنْزَلِـقُ

تَنْسَابُ فِي مَلَكُوتِ اللهِ سَابِقَــةِ ... لاَ الفَجْرِ إِنْ لاَحَ يُغْشِيهَا وَلاَ الغَسَقَ

وَرَبُ نَجْوَى كَدُنْيَا الحُبِ دَافِئَةِ قَـدْ ... نَامَ عَنْهَا رَ َقِيبِي لَيْسَ يَسْتَـرِقِ

عَادَتْ بِهَا الرُوحُ مِنَ(سَلْوَى) [2] مُعَطَرَةِ ... فَالسِجْنِ مِنْ ذِكْرِ (سَلْوَى) كُلُهُ عَبِقَ.

يعمد" زكرياء" في قصيدة"بنت الجزائر" إلى الرمز ، فالبنت هنا هي الجزائر و"سلوى"هي ذاتها الجزائر وليست امرأة وقد نظمها في سجن "بربروس" في أفريل 1955م.

إقرأ كتابك (بحر الكامل)

هَذَا نُوفَمْبَرُ قُمْ وَحْيُ المَدَفِعَـا ... وَاَذْكُرْ جِهَادَكَ وَالسِنِينُ الأَرْبَعَا

وَاقْرَأْ كِتَابَكَ لِلأَنَامِ مِفْصَــلاَ ... تَقْرَأُ بِهِ الدُنْيَا الحَدِيثِ الأَرْوَعَا

---

[1] - خازن النّار،وهو الذي كان يكوي الشاعر بالنار في السجن .

[2] - سلوى : رمز بها الشاعر للجزائر.

وَاصْدَعْ بِثَوْرَتِكَ الزَمَانُ وَأَهْلَـهُ وَاْقْرَعُ بِدُوْلَتِكَ الوَرَى وَالمُجْمَعَا

وَاعْقِدْ لَحْقَكَ فِي المَلاَحِمِ نَـدْوَةُ يَقِفُ السِلاَحَ بِهَا خَطِيبًا مُصْقِعَا

وَقُلْ الجَزَائِرَ وَاضِعْ إِنَ ذِكْرَ اِسْمِهَا تَجِدُ الجَبَابِرَ سَاجِدِينَ وَرَكَعَا

شَقَتْ طَرِيقَ مَصِيرِهَا بِسِلاَحِـهَا وَأَبَتْ بِغَيْرِ المُنْتَهَى أَنْ تَقْنَعَا

شَعْبُ نَدْعُوهُ إِلَى الخَلاَصِ بَنَاتِهِ فَانْصَبَ مَذُ سَمْعِ النَدَا وَتَطَوُعَا

فَلَكُمْ تُصَارِعُ وَالزَمَانُ فَلَمْ تُـرَدُ أَسْبَابُهُ بِالعَرَبْ أَنْ تَتَقَطَعَـا

تِلْكَ العُرُوبَةُ إِنْ تُثِرْ أَعْصَابَهَـا وَهُنَا الزَمَانُ حَيَالَهَا وَتَضَعْضعًا

الضَّادُ فِي الأَجْيَالِ خَلَّدَ مَجْدُهَـا وَالجُرْحُ وَحَدُ فِي هَوَاهَا المُنْزَعَا.[1]

نظم الشاعر قصيدة "اقرأ كتابك" هو مسجون في سجن البرواقية ، داخل الزنزانة رقم 375. وتتمثل مناسبتها في الذكرى الرابعة للثورة الجزائرية المجيدة في 1958م.

لافتات حروفها حمراء (بحر الخفيف) .

لاَذَ بِالانْتِخَابِ(مَوْلِي) سَفَاهَا فِي بِلاَدِ تَسِيلُ فِيهَا الدِمَـاءِ

أَيُ مَعْنَى لِمَجْلِسِ،دُونَ حُكْمِ وَطَنِي ،عَلَى يَدَيْهِ القَضَـاءِ

نَحْنُ نَبْغِي اسْتِقْلاَلَنَا...حَرَفُوهْ مَا اسْتَطَعْتُمْ إِنْ صَدّ عَنهُ الحَيَاءُ

لَقَبوهُ تكَافُلاً... وارْتِبَاطًا مَاعسَاهَا تهُمُنَا الأَسمَـاءْ؟

إِنَ جَهَلْتُمْ طريقه...فعليها (لافتات)..حروفها حمراء

اعتراف، فدولة ..فسلام فكلام....فموعد....فجاء[2]

لقد نظم الشاعر "مفدي زكرياء " هذه القصيدة كجواب ل"غي مولي " ،الحاكم الفرنسي في الجزائر حين دعا للانتخابات في شتاء 1958م، وكان "مولي" رئيس حكومة فرنسا آنئذ.

[1] -مقران فصيح-البناء اللغوي لشعر السجون .ص:304.

[2] -البيت تضمين لبيت أحمد شوقي: تحية فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء

نشيد عزيزة(بحر المجتث).

نامِي عَزِيزَةُ نَــامِي كَمْ لَـذَةُ فِي المَنَامِ

فَأَنْتَ خَـيْرُ أَنِـيسِ فِي حَيرَتِي وَاهْتِمَامِي

وَأَنْتِ خَيْرُ صَـدِيـقِ يَرْعَى عُهُودَ ذِمَامِي

نَامِـي عَزِيـزَةُ نَامِـي

رَفِيقَتِي فِي شِقَائِـــي حَلِيفَتِي فِي سِقَامـــي

قَسِيمَتِي فِي تَمِيمِـــي شَرِيكَتِي فِي طَعَامِـي

رَوْحَتْ فِي السِّجْنِ بَالِـي وَكُنْتِ نُورِ ظَلاَمِـي

فَأَنْتَ فَوقَ البَرَايَّـــا تَسْتَوْجِبُنِي اِحْتِرَامِـي

هِيجَتْ جَرْحُ فُـؤَادِي أَذْكِيَتِي نَّارُ هَيَامِـي[1]

هذه المقاطع مأخوذة من أول قصيدة نظمها الشاعر وهو في السجن،وهي مؤرخة في 1937، و"عزيزة" التي يقصدها الشاعر هنا ليست امرأة وإنما هي قطة حقيقية كانت تتردد على الشاعر في السجن ومن الطريق أن يخصها بقصيدة لأنها آنست وحشته وغربته.

أنا ثائر (بحر الرمل)

فِي الحَنايَا– وَسَوْادَ اللَّيْلِ قَاتِمِ مَالَتْ الأَكْوَانُ سُكْرَى– ثَمِـــلاَتٌ

أَوْدَعْتُـــهَا مُهِجَةٌ الأَقْدَارِ سِـرًّا

فِي الزَوَايَا –بَيْنَ سَهْـرَانْ وَنَائِمٌ وَنُجُومُ اللَّيْلِ حِيرِى – حَالِمَـاتٌ

ضَارِعَـاتٌ بَثَ فِيهَا الغِيبَ أَمْـرَا

وَالمَنَايَّا–بَيْنَ مَظْلُومِ وَظَالِمِ مُثْقِلاَتٍ ضِقْنَّ صَبْـرَا – جَاثِمَـاتٌ

ضِلْنَ يَرْقُبْنَ مَتَّـى يَطْلُعْنَ فَجْـرَا

قَامَ كَالمَارِدِ يَرْتَادُ المَنَايَا وَتَهَـادَى يَمْـلأُ العَالَمُ بُشْـرَى

[1] - مقران فصيح: البناء اللغوي لشعر السجون ص:311.

وَتَحَدِّى الدَهْرُ لاَ يَخْشَى الرَّزَايَا وَتَمَادَى يَغْمُرُ الأَكْوَانُ عِطْرَا

وَمَضَى يَبْنِي عَلَى هَامِّ الضَحَايَا وَتَنَادِي يَلْهُمُ التَّارِيخَ سِفْرَا

وَيُنَادِي سَاجِيَةٌ البَنَـادِقِ فِي الشَوَاهِقِ عَاصِفَـاتٌ

يَا بِلاَدِيَ فتُنَاغِيهِ الصَوَاعِـقِ بِالمَوَاحِقِ صَارِخَـاتٌ

فَـوقَ هَامَــاتِ الجَبَابِـرِ[1]

نظم الشاعر هذه القصيدة إثر فراره من السجن في مارس سنة 1959 م.

[1]- مقران فصيح –البناء اللغوي لشعر السجون .ص: 124.

خاتمة

من خلال هذا البحث المتواضع الذّي نتمنىّ أن يكون في المستوى ،و ذلك بدراستنا لشعر الغربة و السجون عموما و عند مفدي زكرياء خصوصا ، و الذي تطرذقنا فيه إلى خصائص و مميّزات شعر الغربة و السجون عند مفدي زكرياء ن حيث استطعنا الإلمام بما قدمه مفدي زكرياء للمثقف و القاريء املتزم و المهتم بقضايا أمتّه ، و شعبه لكي يستطيع هذا القاريء او المطّلع على هذا البحث ان يفهم الأوضاع القاسية التي عاشها مفدي زكرياء و هذه الأوضاع هي التي جعلته متغنيا بآمال و آلام شعبه.

و من خلال هذه الحوصلة نستنتج أن مفدي زكرياء اختلف عن كثير من الشّعراء ، في قوله للشعر و ذلك نظرًا للظّروف القاسية المختلفة في الزنزانات المظلمة و المواقف الطّارئة ، و يظهر لنا الإبداع الفنّي و الجمالي في شعر مفدي زكرياء من خلال معايشته لقضايا وطنه المختلفة و ذلك بعمق و حماس و صدق .

إذن هذا هو مفدي زكرياء الشاعر الذي قال الشعر مناضلاً ثائرًا ،و قاله ملهما مبدعًا و يمكن القول أيضا أنّ مفدي زكرياء بالرغم ممّا عاشه من إغتراب و سجن و نفي ، إلا أنه استطاع أن يكتب أروع القصائد مؤمنا بالنصر مهما طال الزّمن أو قصر ، بالاضافة الى أنه كان قوي الإيمان صامدًا في وجه الطّغيان .

و في الأخير يمكننا القول بأن هذه معظم النتائج التي تمكنا من الوصول إليها من خلال بحثنا هذا ، إلا أن هذا البحث لم يكن ملمًّا بكل التّفاصيل الدّقيقة المتعلقة بهذا الموضوع .و لذا فهو يبقى مفتوحا لمزيد من البحث و الدراسة و العمق.

قائمة المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم .**
- **المصادر والمراجع:**

1–أحمد الصافي النجفي:"ديوان حصاد السجن "، مكتبة المعـارف ، بيروت لبنان 1983

2–الجاحظ: "البيان والتبين"،ترجمة عبد السلام هارون ،دار الجيل والفكر بيــروت .

(د،ت).262/2 .

3– حنا الفاخوري: " منتجات الأدب العربي" .المكتبة البوليسية .بيروت ، لبنان.

4–رئيف خوري: "مقدمة ديوان حصاد السجن الصافي النجفي" ، مكتبة المعارف بيروت لبنان.

5– سالم المعوش: "شعر السجون في الأدب العربي الحديث"

6–عباس محمود العقاد :"ديوان العقاد"(د،ط) .منشورات المكتبة العصرية .

7–عمر بوقرورة : "الغربة والحنين في الشعر الجزائري الحديث "1945–1962 منشورات جامعة باتنة .

8–محمد زكي العشماوي :"الأدب وقيم الحياة المعاصرة "ط2، الهنية المصرية العامة للكتاب 1974.

9–مفدي زكرياء:"إلياذة الجزائر"، محاضرات الملتقى السادس للفكر الإسلامي .

10–محمد الطاهر عزوي :ذكريات المعتقلين ،د،ط وحدة الطباعة بالرويبة (الجزائر)، المؤسسة الوطنية للإتصال والنشر والإشهار.

11–محمد العيد آل خليفة : "الديوان " تقديم عمر بن قينهن المؤسسة الوطنية للكتاب ،الجزائر 1992.

12–محمد ناصر :"مفدي زكرياء"، طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية وحدة رغاية ، الجزائر 1989.

13–محمد ناصر :"شاعر الثورة في مراحل حياته "، مجلة الثقافة ، العدد 93 مايو 1986

14–مفدي زكرياء : "أمجادنا تتكلم "(ابن تومرت) شاعر الثورة الجزائرية جمعة وحققه (مصطفى بن الحاج بكير حمودة).

15–مفدي زكرياء:"اللهب المقدس"، المؤسسة الوطنية للكتاب .الجزائر ط2، 1991.

16–مقران فصيح "البناء اللغوي لشعر السجون عند مفدي زكرياء ، وأحمد الصافي النجفي ".ط1،الناشر : منشورات بونة للبحوث والدراسات 1429 هـ /2008م

17–يحي الشيخ صالح : "شعر الثورة عند مفدي زكرياء دراسة فنية تحليلية " .

- **الرسائل:**

1–حنان بومالي : "سجينات مفدي زكرياء " .جامعة الامير عبد القادر قسنطينة .

2– سكينة قدور "الجسيسات في الشعر الحديث" رسالة دكتوراه . معهد اللغة العربية وآدابها جامعة منتوري .قسنطية 2007/2006م.

فهرس الموضوعات"

1-مقدمة.

2-الفصل الأول:دراســة نظريـة .

- **المبحث الأول: تعريف الغربة والسجون**.....02.

1-تعريف الغربة وأنواعها.....02.

2-تعريف السجون.....09.

3-تطور شعر الغربة والسجون عبر العصور.....13

- **المبحث الثاني: تجليات الغربة والسجون في أشعار بعض الشعراء.**

1-الشاعر العراقي:" أحمد الصافي النجفي".....23

2-الشاعر الجزائري"محمد العيد آل خليفة".....27

3-الفصل الثاني: دراسة نظرية .

- **المبحث الأول: التعريف بمفدي زكرياء**.....32

1-مولده ونسبه.....32

2-الحياة الإجتماعية والثقافية التي نشأ فيها مفدي زكرياء.....33

- **المبحث الثاني :الأوضاع السياسية والاستعمارية وأثرهاعلى حياة مفدي زكرياء**....42
- **المبحث الثالث: أثر السجن والمنفى في شخصية مفدي زكرياء**.....49

4-الفصل الثالث: دراسة تطبيقية .

- **المبحث الأول أثر الإستدمار في شاعرية مفدي زكرياء**.....52
- **المبحث الثاني: شعر الغربة والسجون عن مفدي زكرياء** .....56.
- **المبحث الثالث: خصائص شعر الغربة والسجون عند مفدي زكرياء**.....58
- **المبحث الرابع: نماذج من شعر الغربة والسجون عند مفدي زكرياء**.....64

5-الخاتمة .

6-قائمة المصادر والمراجع.

7-فهرس الموضوعات.